قانـــون الحـــب

مجموعة قصصية

سعيد سالم

المؤلف : سعيد سالم
الكتاب : قانون الحب
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠٦

٦٨ شارع قصر العيني - القاهرة
ت : ٧٩٤١٩٢٩

إهـــداء

إلي زوجتى العزيزة ..

التى تحملت فى صبر وجلد أعباء

رحلتى الشاقة مع الإبداع .

سعيد سالم

قانون الحب

مجموعة قصصية .. سعيد سالم

الفصل والوصل

لم أكن أعرف ـ إلى عهد قريب كم عدد البحيرات عندنا ، وأين تقع على خريطة البلاد كما لم أكن أعرف أن مياهها عذبة تنبع طبيعياً من الأرض وتصب فى البحر . أما أهم ما كنت ومازلت ـ أجهله حقاً فهو ذلك السر الإلهى السابح فى المنطقة التى تصل ـ وتفصل فى الوقت ذاته ـ ما بين البحر والبحيره ، أو كما يقولون : ما بين المالح والحلو .

من هنا انتابتنى رغبة جارفة فى التعرف على هذه المعلومات الجغرافية الطبيعية ، بدأت بالقراءة وانتهت بذهابى إلى أقرب بحيرة لمدينتى وهى بحيرة « إدكو »

عند المنطقة التى يمتزج فيها النهر بالبحر والتى يسميها الصيادون بـ « البوغاز » التقيت بصياد عجوز قرأت فى معالم وجهه الاستعداد الواضح لتحمل الحديث معى ، بينما كان يطرح شبكته فى الماء ممسكاً ببدايتها وقد تجسدت على تضاريس وجهه وخطوطه الغليظة المتشابكة كل معانى الرضا والصبر بعد طول جدل مع متناقضات الحياة .

لم أبذل جهداً يذكر فى اقتحام عالمه البسيط الهادئ ، ففى غضون دقائق قليلة كنا نتحدث كما يتحدث الأصدقاء . قال والسيجارة مدلاة من فمه وقد بلل رذاذ الموج جزءاً كبيراً منها :

ـ فى هذه المنطقة يعيش سمك الحلو مع سمك المالح .

تناثرت حبات المياه على وجهينا بعد ارتطام موجة بالصخرة التى نجلس عليها ، وشردت قليلاً حين تذكرت ما كنا ندرسه فى علم المعادن عن الطبقة الفاصلة بين المعدن وطلائه والواصلة بينهما أيضا والمسماة بالإنجليزية The Transition Layer

لم أعاود انتباهى إليه إلا حين سمعته يقول فى وقار شديد :

" مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان". صدق الله العظيم

فقلت بانبهار تلقائى شديد :

- سبحان الله

تجسدت العلاقة بين الماء والشمس والهواء والشبكة والسمك والرزق والحظ والحياة والموت جميعاً على الكرمشات الجميلة تحت عينيه بتجاعيدها المتداخلة فى شكل هندسى بديع .

عاودنى الشرود حين انتقلت من عالم البحار إلى عالم المعادن إلى عالم الوجوه البشرية التى تفنن الخالق فى إبداعها على أكمل وجه، ولأول مرة أنتبه إلى مغزى نظراتها التى اتضح لى الآن فقط - وأنا أنظر إلى وجه الصياد العجوز - أنها لا تختلف فى جوهرها عن طبيعة المسافة الواصلة بين العذب والمالح ، أو بين المعدن وطلائه الزجاجى . . تلك الطبقة التى تشتمل عناصرها المكونه لها على نسب لابد أن تتوازن فيها خواص المعدن وخواص الطلاء كيمائياً وطبيعياً وإلاتشقق الطلاء وانفصل عن المعدن وتركه عارياً معرضاً للتأكسد والصدأ والتآكل .

لو لم ألتق بهذا الوجه النحاسى المريح ، لما تبين لى كم أنا غرير ساذج يسيل لعابه وتنفتح مغاليق قلبه على مصاريعها حين تمن عليه محبوبته بنظرة هى الوعد والوعيد ، مثلما هى المعدن والطلاء . الحلو والمالح .. الحلم والواقع !

وبحماس يقول لى الصياد :

- كم من أساتذة جاءوا وحللوا المياه هنا فعادوا مبهورين بالسر الإلهى .

- كيف ؟

- المسافة لا تتجاوز أمتاراً قليلة يسبقها مباشرة ملح ويليها مباشرة عذب ، وأما التركيز فلا يتغير أبداً .. هنا أو هناك !

تماما كالمسافة بين وجهها وقناعها .. تلك المسافة التى كانت خافية عن عينى وقلبى فلم أحسب لوجودها حسابا ، لأن المسافة بين نواياى وأقوالى لا تتجاوز الصفر قيد أنملة .. تماما مثل هذا الصياد .

تقول لى هامسة فى دلال يمتزج بالحياء :

- أحبك . أحبك .

وتصب على وجهى نظراتها الواصلة الفاصلة فينساب من فمى نهر من حلو الكلام .. « قد ظمئنا فكان ريقك وردا .. وثملنا فكان خدك وردا .. جمع الله شملنا فوددنا .. أن بين الصباح والليل سداً . أحبك يا غزالى يا قطتى يا وردتى يا عصفورتى .. أحبك » .

البحر ثائر أمامى أما البحيرة فهادئة .. والسر قابع فى المسافة المائجة بينهما .. تستمع إلى غزلى فى نشوة وشبق . ويختفى السر فى المسافة . يذوب الأبيض فى الأسود . يا إلهى . كلما أمعنت النظر فى وجه الصياد تنهال على الرؤى وتسقط الحجب ويتوالى الكشف .. انها تستمتع حتى النخاع بذوبانى فى مسافتها الرمادية بين الملح الأجاج الفاصل والعذب الفرات الواصل .. تتفنن فى الحرص والحذر والريبة والتوجس . تدرك جيدا أنها لا تستطيع السيطرة والقيادة والتحكم إلا من منطقة البرزخ . لو أنها أقدمت أو تراجعت شبراً واحدا لأحبتنى مثلما أحبها وأطلقت قلبها من إسار عقلها الفولاذى ، لكنها لا تريد .. رغم أنها تعلم علم اليقين أننى لا أعرف كيف أعيش بلا طمأنينة تمتزج فيها الحقيقة بالحلم فينصهران بلا مسافة . يتوحدان تماماً .

قال الصياد فى سكينة رائعة وهو يسحب الشبكة وقد امتلأت بالأسماك من القبيلتين مثلما امتلأ وجهه بفرحة هادئة :

- لا تتحرك من جانبى حتى الطرحة الأخيرة

أسعدنى أنه متفائل بوجودى فأومأت برأسى موافقا فى سعادة . قال بلهجة آمرة :

- ستتعشى معى اليوم إن شاء الله .

سوف تقول لى فى قلق والخوف يدب فى قلبها :

- لماذا لا تصدق أننى أحبك مثلما تحبنى ؟

ـ لأنك لا تدركين كم أحبك .. وكيف أحبك .

وسوف تدرك بفطرتها أننى وضعت يدى فى قلب البرزخ . قلبت بها مياهه وحركتها يمنةً ويسرة وصنعت بها دوامات ودفعت بها الماء فى وجه الفراغ وقادنى الصياد إلى منزله . تصاعدت رائحة الشواء فى فضاء المقابر . المسافة بين منزله ومقبرة أبيه لا تتجاوز أمتاراً قليلة تضم بعض البيوت الصغيرة ، ولحم السمك شديد البياض شهى المذاق .

يقول العجوز إنه كثيراً ما يأتى فى الليل ليتحدث مع أبيه حتى أنه يكاد يسمع صوته كلمة بكلمة .. أشعل نرجيلته وبرقت جمرات الفحم بلون أحمر قان يشع بالدفء والحرارة ووهج المؤانسة فى ضوء القمر . قال وهو ينفث سحابة كثيفة من دخان المعسل الذى أحب رائحته :

ـ لم أشعر أبداً أنه مات

ـ كيف ؟

ـ هناك وصل بينى وبين برزخه .

سوف يزداد خوفها من أن تصل يدى إلى عمق أكثر فى المنطقة الرمادية .. أنا اليوم أبصر وأسمع جيداً . صرت أستشف ضباب الفصل فى نظراتها وأسمعه فى نبراتها .

رائحة الشاى تتخلل سحب الأوهام الوردية .. أوهامى . أوهام الصياد العجوز وكل الذين عشقوا أوهامهم وعاشوا بها سعادة وشقاء

دون حرص أو حذر .. المسألة تتلخص فى أنهم يطلقون لأرواحهم العنان على الأرض فى البرزخ . فى فضاء الكون العظيم .

ويرتشف العجوز الشاى بصوت مسموع .. يستحلب لذته فى أزيز حاد يصل إلى مسامعى ممتزجاً بإنذار سرى قاطع بثته روح هائمة من حوله .

- احترس من وقود النار .

فأقول لها غاضبا حين ألقاها :

- أنت لا تعرفين الحب

وتتساقط دموع رمادية من المسافة الفاصلة الواصلة .. ولن أصدقها من جديد حين تقول :

- ورحمة أبى أحبك .

فأسألها بخبث طفولى :

- هل تشعرين أنه مات ؟

- ماذا تقصد ؟

- هل هناك وصل بينك وبين ......

ولا أكمل فلا تفهم ويعود بى العجوز إلى البوغاز .. يصافحنى وأتناول منه لفافة السمك ثم يفاجئنى بقوله مودعا :

- أنت رجل طيب جدا

وتنتابنى الدهشة فأسأله فى فضول شديد

- وكيف عرفت ؟

قال بعينين لن أنساهما ما حييت :

- من نظرتك للمياه لحظة الامتزاج .

* * *

كف مريم

كنت أتصور أن الذى يدفع حركة الدماء ويضخ الحياة فى هذا الكيان الخرسانى المتصخر إن هو إلا قلب قُدّ من فولاذ .. ولكن ما إن اقتحمت القلعة من بابها السرى الذى لم يهتد إليه أحد من قبل ،حتى وجدت نفسى أمام قلب عصفورة صغيرة . قلب أخضر اللون زجاجى البنيان رقيقه .. يا ألله .. أهذا قلب مريم ؟ ! .. أم ترانى فى حلم جميل ؟! .

اندفعت إليها بلهفة عمرى كله .. بخمسين عاما ولت فى ثوان .. بالعمر المتبقى الذى لن يكتب قبل القبلة الأولى .. بعينى طفل يرى الدنيا لأول مرة ولا يعرف الضلال ولا الهدى .. بقلب شاب لا يخطر الموت بفكره . اقتربت بوجهى من وجهها . كانت وجنتها تفاحة حمراء صابحة، وكانت المسافة بين جبهتينا لحنا غامضاً يعزفه القدر .

تسلل أريجها إلى أنفى وكانت أنفاسها نبض الحياة منذ بدء الخليقة .. وعندما اقتربت المسافة بيننا كانت الدنيا بأسرها لقاءً حافلا يدعو إلى العناق .. وكانت الاخرة امتداداً لها . فكانت الجنة وكانت النار، وكان التاريخ والتراث والدين والأعراف والأخلاق والأزل والأبد ، ونسمة صيف لافحة وترنيمة طير أخضر رقيق .. ذابوا جميعاً فى عناق تلك المسافة الصغيرة الفاصلة بين وجهينا ، والتى كلما

انحسرت أشعلت حرارة الشوق فاستحال الانحسار إلى اتساع لا نهاية له .. كون سرمدى يعج بأسرار الخلق والبدء والانتهاء والوجود والعدم كان يشغل تلك المسافة زمانا ومكانا .

ما أروع أن تجتمع مائة عام بين شفاه أربع يتهددها الفراق الوقتى .. أن يذوب كل هذا العمر فى لحظة هى رشفة من رضاب الحب المسكر .. أن تهدر شلالات الذكريات بين أعطاف ذلك التماس الشفيف الحانى ، وأن يتكثف الوجود كله فى لحظة ملهمة تنصهر فيها الأسرار والمعانى وكل ما لا يقال وما لا يدرك بحرارة قبلة الخمسين ، فحبيبتى مسافرة غدا .

وفى اللحظة التى تلاشت فيها المسافة واقتربت الشفاه اقتحمنا هاجس غامض متوحش لم أدر من أين جاء بسطوته وقوته وجبروته ليضع بيننا حاجزاً عنيداً على يد مريم تخفى به وجهها الجميل لتحول دون انتشاء اللحظة المقدسة ! .. ويضيق فؤادها بالسر فيتفجر فى اللامسافة لحن القدر بقوة رعدية تحيل العناق إلى حرب قاسية يشتعل فيها الصراع بين النار والجنة ، والشياطين و الملائكة ، والحرام والحلال ، والخيانة والأمانة .. على جبهتين تحارب إحداهما انتصاراً للحب والثانية لدموع الشفق .

- لا .....

شهقت بها مريم وقد تقطعت أنفاسها فى الهوة السحيقة

الفاصلة بين وعيها ونقيضه ، وقد أسفرت الحرب عن تمزيق روحها إلى شطرين تفصل بينهما تلك الهوة ، ومريم عاجزة عن لم شملها فيها .. وكان الشارع خالياً من المارة ، وكان السر حبيس جدران العربة ، وأسلحة الأضداد مشهرة فى عقلينا بعد أن نجح ذلك المجهول الغامض فى حصارنا داخل عربة صغيرة فى شارع ضيق بمدينة مزدحمة ودنيا الله واسعة بالمروج والصحارى والوديان والغابات والبحار والأنهار .

منعنا ذلك الهاجس اللعين من اللقاء على الملأ . حال دون خلوتنا فى مكان آمن . سلبنا القدرة على الكلام الحر . أفرغ عفونته فى ضميرنا الواحد المتوحد الذى لم يهتد الشر إليه ، لتقول لى مريم بعينين دامعتين متوسلتين :

- لا ....

تقولها بنبرة عذراء مرتبكة فى العشرين لتحيل بحيائها روحى إلى رجفة يتنازعها الخوف والرجاء . يحرمون علينا الحب ويتمنون الوقوع فيه . يقيدون أرواحنا بالفولاذ فأرى على كف مريم - الماثل أمام شفتى - خطوط القتال وأنهار الدماء ومقابر الضحايا وصيحات الملوك وهدير الجنود وانهيال الرماح وتساقط الصواريخ وبكاء الآباء على الأبناء ومعاهدات الصلح وعناق الكذب وتوقيعات الزعماء على الوثائق .. وتبحث شفتاى عن شفتى مريم فلا تجدهما .. وتبكى مئذنة !

لا يا مريم ...

أنا الذى أقولها الآن .. أحبك فوق التصور . لن أخضع للابتزاز والكذب .. أقتلونى ومزقوا جسدى وبعثروا مزقة فى أرجاء الدنيا ، لكنكم لن تحرمونى من قبلة الحبيبة !

يا مريم حطمى حصون الوهم وأغمضى نجمتيك الباهرتين لنور القمر . إنى قادر على هزيمتكم أيها الأوغاد ، فلقد استحلت فجأة إلى وحش يمسك بكف مريم . بزيحها بقوة عن وجهها فتتساقطون كالذباب ولا نامت يا مريم أعين الجبناء .

ماذا فعلتم بحبيبتى يا أعداء الحياة حتى جعلتم فزعها منى يماثل فزعها منكم وأنا أمنها وطمأنينتها . أنا سكينتها ونشوتها ولن أكون لها غير لك .. فكيف أحتمل مشاهدة ذلك الفزع الرهيب فى عينى نجمتى العسليتين ولا أتراجع إشفاقا عليها ؟! ..

بالغدر انتصر الهاجس على لائى فابتعدت لأربت على ظهرها وأكتفى بتقبيل يدها ودموعى متحجرة فى عينى وروحى حبيسة ابتسامته الخبيثة الظافرة .

أحقا تسافرين يا مريم وتتركيننى وحيدا فى مواجهة الغرماء ؟ .. أحقا لن أراك قبل مرور ألف وأربعمائة وأربعين ساعة يا أدق دقائق عمرى ، ورغم ذلك تحول كفك المرتعشة بين شفتى وشفتيك حتى لا أقبلك ؟!

انتزعت من روحى بسمة من يرى نهرا من حنانه يسيل من العربة إلى أرض الطريق وكنت أرى النجوم تتساقط أمامى والأقمار وأنا عاجز عن التقاطها .

وحين أدركت أن عمــرى القادم لم يكتب بعد ، كان لابد أن نغادر الشارع ليعود كل منا إلى جدرانه الأربع حيث عالمه المستقر القديم .

* * *

حكايتى مع الخواجات

-١-

فى الصغر سلمتنى أمى إلى الخواجة آندرز لأعمل بمصنعه مع الصبية فى تعبئة أكياس الشاى خلال إجازة الصيف لقاء خمسة قروش فى اليوم . بهرتنى شخصيته القاطعة المعالم والقرارات .

استرحت له وتمنيت أن أكون مثله عندما أكبر وأصبح مسئولا عن عمل . من يعمل يكافأ ومن يهمل يفصل ولا حل وسطاً . ولم يكن الحب مبعث اهتمامه بى ، فتلك كلمة لا يعرفها قاموس العمل عند آندرز . لكنه كان بالتأكيد معجبا بكفاءتى الإنتاجية وعزوفى عن الثرثرة مع الصبية وردودى المختصرة على أى سؤال يوجه إلى .. حتى أنه قال لى يوما

- يابنى .. لقد ولدت فى المكان غير الصحيح !

لم أفهم ما يقصده تماما ، حتى اصطحبنى يوما إلى مكتبه وأخرج لى كتيبا ملونا عن بلاده . راح يفر صفحات الكتيب ليفرجنى على مدينته التى غادرها منذ عشرات السنين . خرجت عن إطار زمانى ومكانى بفعل قوة خفية غامضة ورحت بكيانى كله إلى عالم خيالى مسحور تتجاذبه ألوان الزهور والبحار والجبال والطيور والمساكن الصغيرة ذات الطرز الأنيقة والأسقف القرميدية المخروطة والمحاطة بالحدائق من كل مكان .. وتساءلت فى ذهول :

- هل فى الدنيا مدن وبيوت ومناظر بهذا الجمال ؟ !

نظر إلى فى إشفاق وأضاف إلى يوميتى قرشا ومنحنى يوما إجازة . بلغت من السعادة غايتها حين قال لى بنبرة موحية :

ـ لو اجتهدت فى حياتك فسوف يمكنك أن تنعم بهذا الجمال .

ولكنى لم أجرؤ على سؤاله :

ـ فلماذا تركت إذن بلادك الجميلة وجئت إلينا لتعيش بيننا كل هذا العمر ؟

في المنزل حذرتنى أمى من أشياء غريبة . اندفعت الدماء إلى أذنى ونكست رأسى فى حرج والحسرة تملأ قلبى ، فكيف تصدر من أمى مثل تلك الكلمات الشاذة عن عجوز طيب مثل الخواجة آندرز ؟ ! .

أردت أن أعيد إليه قروشه وأترك مصنعه ، ولكنها بحاجة شديدة إلى تلك القروش ، فتراجعت عن فكرتى متوقعا أن يغفر لها الله سوء ظنها بالخواجة وقلة ثقتها برجولتى .

فى اليوم التالى بدأ آندرز يدربنى على العمل فى ورشة الصيانة قائلاً إنه يضع بذلك أول حجر أساس لمستقبلى . فى خلال فترة وجيزة أثبت كفاءة أذهلت آندرز حتى أنه أصبح يعتمد على مهارة أصابعى فى تخليق بعض قطع الغيار غير المتوفرة بالمخزن . ثم عيننى مساعدا للخراط بعد أن طرد صديقى « سوكة » ـ المساعد القديم ـ بتهمة محاولة السرقة .

عندما اقتربت الإجازة الصيفية من الانتهاء قال الخواجة لأمى

- إصرارك على تعليم الولد سيضيع عليه فرصا لا تعوض كخراط محترف

- أتضحك على يا خواجة ؟ ! .. خراط محترف عمره خمس عشرة سنة ؟

- إبنك ياسيدتى صانع عبقرى والفلوس أهم من التعليم . صدقينى حتى لا تندمى وقال « سوكه » باكيا :

- والله العظيم أنا برىء .

- أنا عارف والله

- منه لله قطع عيشى ولوث سمعتى

- المهم أنه لم ينجح فى أن يفرق بيننا

وفى المساء قلت لأمى بحرقة

- أوحشتنى المدرسة يا أمى

نظرت إلى فى توجس ثم أخبرتنى بنبرة استفهامية مثقلة بالتردد :

- تقابلت اليوم مع الخواجة و ......

انتظرت أن أسألها عما انتهى إليه اللقاء ولكنى سألتها باهتمام :

- هل اشتريت لى حقيبة العام الدراسى الجديد ؟

لم تجد بدا من عرض القضية على صاحبها فربما خفف ذلك عن كاهلها قليلاً . قالت في حياء :

- ينصح الخواجة بأن تترك المدرسة وتتفرغ للورشة

رغم صغر سني قلت بلا مبالاة محسوبة :

- اتركيه لحاله إنه رجل مجنون

تبددت حيرتها وقالت وهي تتنهد :

- غدا إن شاء الله أشترى لك الحقيبة

- ٢ -

في عمر الشباب أحببت كريستينا ابنة جارنا الخواجة أسطفانوس صاحب محل البقالة الذى يقع بجوار بيتنا مباشرة . علمتنى أن أقرأ لبلزاك وجوركى وجوجول . علمتها كيف تقرأ سورة مريم وشرحت لها معانيها من كتاب التفسير ، كما علمتها أمي كيف تطبخ محشى الكرنب والكوارع بالحمص والدمعة ، أما هي فعلمتنى كيف أرقص برشاقة على أنغام التانجو والديسكو .

لم يخطر ببال أبى أن تنشأ بينى وبين كريستينا علاقة عاطفية ، فقد اعتاد الجميع أن يرونا نلعب معاً كأخ وشقيقته منذ الطفولة .. والحقيقة أن كريستينا كانت تتمتع بالعديد من الصفات الجادة التى تميز معظم الرجال ، مما ساعد على انتفاء أية شبهة حول علاقتنا الراسخة .

وحين بدأنا نروي زهرة حبنا النضرة من ماء الشباب الدافق بالحيوية والجنون ، ازداد تعلق كل منا بالآخر حتى انكشف أمرنا وبات المستور مفضوحاً أمام الجميع .

ثارت ثائرة الخواجة إسطفانوس . جاء إلى بيتنا يهدد أبى ويتوعده ويعيره بالفجوة العميقة بين مستوانا ومستواه الاجتماعى . لم يسكت أبى - رغم مفاجأته بما حدث - وإنما قال له :

- ما الفرق ؟ أنت بقال وأنا ميكانيكى . أنا صاحب البلد وأنت ضيف . أما مكسبى فأضعاف مكسبك ؟!

خفت حدة هياج الخواجة حين تيقن من قوة خصمه . تحولت عنصريته المستترة إلى ما يشبه الاستكانة أو التواضع المصنوع حين قال بأدب :

- من فضلك ابعد إبنك عن بنتى .

صاح أبى فى حسم :

- ابنى ليس لعبة فى يدى يا خواجة . هو حر فى حياته . قل أنت لابنتك أن تلم نفسها .

.. ويوم مات أبى مشى الخواجة فى جنازته وبدا كما لو كان حزينا على فراقه . وبعد الجنازة بعدة أيام جاءنى بعرض جيد للعمل فى شركة كبرى باليونان بحاجة إلى تخصصى النادر فى الميكانيكا . فرحت به وشكرته وطلبت منه أن يمهلنى وقتا للتفكير .

حين اختليت بكريستينا قالت إنه يريد إبعادى عنها ونصحتنى أن أرفض العرض . استجبت لرغبتها رغم حاجتى الشديدة إلى المال لأدبر به شئون أسرتى المرتبكة ، ووعدتها ألا يفرق بيننا إلا الموت . كان دخلى من وظيفتى متواضعاً فطلبت من كريستينا - على استحياء - أن تمهلنى لعامين حتى أدبر نفقات الزواج . أدهشنى أنها انفجرت فى الضحك فجأة فسألتها :

- ما الذى يضحكك ؟

- هذا الزواج الذى تتحدث عنه

- ألا تحبيننى ؟

- بالطبع أحبك ، ولكن ما علاقة هذا الأمر بالزواج ؟

- أنا لم أطالبك بتغيير دينك .

- ليس السبب هو اختلاف الديانة أيها الشرقى الساذج .

- إذن فما السبب ؟

- لست مضطرة أن أوضحه لك

أسرعت إلى أبيها وأعلنته بقبول العقد فقال لى :

- هذا عين العقل يا بنى .

وسافرت إلى اليونان وانقطعت صلتى إلى الأبد بكريستينا وأبيها .

في اليونان أثبت كفاءتي فعينت مندوبا متجولاً للشركة في العديد من دول أوروبا . كانت فكرة الزواج تلح على من حين لآخر أملا في حياة مستقرة وأسرة سعيدة ... لكنى لم أفكر يوماً في الزواج من أجنبية لأننى لم أعد أتصور الزواج من امرأة لا تعرف أن تقول لى في ثورة غضبها :

- يا شيخ بلا نيله !!

لم أشعر بدفء البيت والوطن في أى بلد زرتها . كنت أشعر أننى ريشة خفيفة تطيرها نسمة هواء رقيقة قد تهب في أية لحظة . لم يكن شعورى المكثف بالغربة ناجماً عن ضيق ذات اليد أو صعوبة العمل ، إذ أننى جمعت مالا وفيرا وأنجزت أعمالاً ناجحة عديدة ، وإنما هو إحساس بالبرودة والخوف والاختناق .

وحين استقر بى المقام لفترة طالت في أمريكا عرفت « كاتيا » . بهرت بمصريتى وأسمتنى بـ« الفرعون المهيب » وبذلت أقصى ما تستطيع أنثى أن تبذله للإيقاع برجل . أصبحت على يقين من أنها تحبنى فتزوجتها لأحقق لها أمنيتها بالحصول على فرعون صغير منى .. وجاء الفرعون فملأت به دنياى حبا وسعادة ، ويا شيخ بلا نيله ! كانت أحوالى مستقرة في العمل حتى ظهر الخواجه « بربونى » اليهودى الأمريكى ذو الأصل الإيطالى ، فأحال حياتى إلى جحيم من

الغم والكدر ظل يوقع بينى وبين رؤسائى ويدبر ضدى المؤامرات للتشكيك فى قدراتى المهنية وكان يسمينى فى غيابى بالمتخلف !

ولما نجح مسعاه لم يبق أمامى إلا العودة إلى وطنى وكفى الله المؤمنين شر القتال . لكن محبوبتى رفضت قائلة إنها لا تستطيع الحياة فى الصحراء لأنها تكره الجمال والحمير ولأنها لا تطيق الذباب والضجيج والزحام ، ولا يمكنها أن تطمئن على فرعونها الصغير من طلقات رصاص الإرهابين الدمويين المتعطشين إلى حكم دولة فقيرة تعانى من أعباء ديونها الخارجية الباهظة .

لم أنجح فى إقناعها بشتى السبل ، ولما هددتها بالطلاق لم تعبأ وقالت انها تستطيع الحياة بدونى مع فرعونها الصغير وإن لديها العديد من الأصدقاء الذين سيعوضونها عن غيابى كثيرا !

قررت ألا أحرمها من فرصة أخيرة فاصطحبت الولد فى غيابها وتوجهت به إلى المطار للسفر إلى القاهرة وتركت لها رسالة بها عنوانى فى مصر وكلمات رقيقة أتوسل بها إليها أن تحكم عقلها وتأتى مصر حين تشاء .

أمام بوابة المغادرة فى المطار ألقى البوليس القبض على وحوكمت بتهمة « اختطاف ابنى » ! وصدر على حكم بالسجن والغرامة .. وبعد السجن عدت إلى بلدى فرعونا وحيدا محطماً .

فى الأربعين من عمرى سألنى المستر جاكسون الخبير الإنجليزى :

ـ كم تتقاضى راتبا عن وظيفتك هنا ؟

ـ ما يعادل ستين جنيهاً إسترلينيا .

انفجر الخواجة فى ضحك متواصل . كان واضحا أنه يسخر من ضآلة الراتب فسألته :

ـ كم يتقاضى من يشغل مثل هذه الوظيفة فى بلادكم ؟

ـ على الأقل ألف إسترلينى .

أوضحت له طبيعة الحالة الاقتصادية فى بلادنا وعلاقة الأسعار بالأجور فى ظل التضخم واختلال ميزان المدفوعات وزيادة النسل المطردة وقلة موارد العملة الصعبة وما إلى ذلك ... قال لى إن الحل الوحيد لأزمتنا الاقتصادية هو تطبيق نظام السوق الحرة تطبيقاً كاملاً كما هو الحال فى كل الدول الرأسمالية المتقدمة ، ثم أردف قائلاً :

ـ كل ما تسوقه من أسباب هى مجرد حجج باطلة يتشدق بها حكامكم الفاشلين ليظلوا قابعين على أنفاسكم حتى الموت .

جاء هذا الخبير إلى مصر ليشرف على تركيب ماكينة جديدة بالمؤسسة التى عملت بها مؤخرا . سألت عن أجره فعلمت أنه يتقاضى عن اليوم الواحد ما يقرب من سبعمائة جنيه إسترلينى بالإضافة إلى مائة جنيه مصرى كمصروف جيب ومائتى جنيه « بدل سكن » ، وذلك بناء على تعاقد رسمى بين مؤسستنا والمؤسسة الموردة للآلة . فى البداية تصورت أن هناك خطأ ما فى تقدير مثل هذا المبلغ الباهظ كأجر يومى للخواجة ، وكان لا بد أن ألفت نظر أحد كبار المسئولين إلى ذلك حتى أريح ضميرى على الأقل . ثم إنى كنت معتقدا أن خبرة هذا الرجل فى التركيب لابد أن تكون مستندة إلى مؤهل علمى شديد التخصص نادر الشيوع ، وإلا لما وافقت المؤسسة على منحه تلك الثروة اليومية التى تكفى للإنفاق على أسرة مصرية متوسطة الحال لمدة عام كامل . وبالبحث والتحرى تبين أنه حاصل على شهادة فنية متواضعة تعادل فى بلادنا الدبلوم المتوسط .. غير أن شاربه الأبيض ووجنتيه الحمراوين وجسده الفارع وخيلاءه الشديد قد ساهموا جميعاً بقسط كبير فى تضخيم قيمة سيادته - المادية وغير المادية - فى عيون السادة أبناء البلد المحترمين والمسئولين عن تحديد رواتبنا ورواتب الخبراء من الخواجات .

لم أستطع كتمان غضبى فقررت إثارة الموضوع على أعلى مستوى بالمؤسسة باعتباره جريمة فى حق الوطن والمواطنين .

توجهت إلى نائب الرئيس لأستفسر عن ملابسات وقوع هذه الجريمة وللبحث عن أسرع وسيلة لإيقاف نزفها المستمر . كان هناك جمع من المنتظرين بمكتب السكرتارية فانضممت إليهم وجلست منتظراً دورى فى الدخول . فجأة جاء الخواجة جاكسون فاندفعت السكرتيرة واقفة وتبعها الجميع فى تلقائية غريبة . جرت السكرتيرة إلى باب النائب ففتحته ودخل الخواجة - دون انتظار - تسبقه ابتسامته الصفراء الظافرة المتعالية .

من خلال الباب نصف المفتوح لمحت النائب يقف منتصبا كجندى منضبط حين رأى الخواجة ، وبابتسامة عريضة ساذجة ترك ضيوفه وأهملهم وراح يرحب بحرارة بالخبير الإنجليزى .

غادرت المكان وعدت إلى مكتبى متباطئاً منكسراً حزيناً .

- ٦ -

بعد إحالتى إلى التقاعد وزعت يومى بين الاستماع إلى نشرات الأخبار بالراديو والذهاب إلى المسجد للصلاة والاستماع إلى القرآن الكريم .

كلما استعمت إلى النشرة طاردتنى أشباح آندرز وإسطفانوس وبروبونى وكاتيا وجاكسون فى كل مكان بالعالم . أرى أيديهم ملطخة بدماء المسلمين من البوسنة وحتى العراق وفلسطين ، فأستمع إلى القرآن بقلبى وغالبا ما تنتابنى الرغبة فى البكاء لكنى أبتسم .

* * *

عشر قصص قصيرة جداً

١ـ السقف :

هرولت إليه شاكيا باكيا سوء حالى وتشرد عيالى ، فقد انهار بيتى الصغير . فى البداية هنأنى بنجاة أسرتى من الموت ثم وعدنى بأن يتوسط لى لدى المسئولين لتدبير مأوى عاجل لأسرتى . غمرنى بكرم ضيافته وسخاء يده حتى كدت أذوب خجلا من إنسانيته . لكنه حين وقف يودعنى كانت نظراته نارية وهو يقول لى :

ـ لا تنم تحت سقف مهدد بالسقوط !

٢ـ النظرية الجديدة :

لم يقض لى مطلبى إلا بعد أن رشوته بناء على طلب صريح منه . ولما سألته كيف يبرر موقفه هذا لنفسه ، قال بثقة إنه يساهم بإيجابية فى تحقيق نظرية التكافل الاجتماعى الإجبارى بين المواطنين . ومضى يفسر نظريته قائلا إن الناس لا يستجيبون لقوانين السماء التى تكفل العدالة للجميع فلا يدفعون زكاة ولا صدقة ، كما أنهم لا يستجيبون لقوانين الأرض المماثلة فيتهربون من الضرائب ، ولهذا كان لا بد من اختراع النظرية الجديدة .

٣ -ـ الخصمان

كانا خصمين لدودين تضاربت المصالح واشتعلت بينهما أوار حرب ضروس لا تنتهى . لكن أحدا منهما لم يتمكن من القضاء على

خصمه . ولم يبق الزمن كدأبه على حال ، إذ شاءت الظروف أن يتفقا معا على خصم ثالث فكانت حربا من نوع جديد ، تضافرت فيها الكفاءتان وانتهت بضرب خصمهما فى مقتل . تأملت ما حدث وقلت لنفسى :

ـ ما أهون الكراهية حين تفرق بين الناس إلى الكراهية حين تجمع بينهم !

٤ ـ الوريث :

فى لمح البصر وقعت الحادثة وتهشمت العربة فقتل الرجل وزوجته ونقلت الجثتان إلى المستشفى . وقع المحقق فى حيرة أمام الشهود ليعرف أيهما صعدت روحه إلى بارئها قبل الآخر . سألت عن أهمية هذا الأمر فاتضح لى أن الذى تصعد روحه أخيراً هو الذى يرث من صعدت روحه أولاً !

٥ ـ الحلم :

اقتحم على خلوتى مبتهجا بتحقيق حلمه القديم . نظرت إليه فى فضول شديد . قال وأنفاسه تكاد تتوقف :

ـ لقد رأيته رأى العين .

ـ إذن فصفه فى أدق تعريف مختصر .

ـ رأس ثعلب وقلب عصفور وقبضة من فولاذ !

٦ ـ الحب فى الوقت الضائع :

غابت عشرة سنين فى سفر وجاءت ملهوفه تخاطبنى فى الهاتف :

ـ كيف حالك . هل أنت بخير ؟ أما زالت معافى ؟ أخشى ألا أعرفك حين أراك .

ـ أنا بخير . الجديد هو بياض شعر رأسى ، أما العافية فخضعت بالطبيعة لحكم الزمن .

ـ ألن تكون قادراً على مواصلة حبى ؟

ـ أحبك ولكن احذرى . . فلم يبق أمامنا إلا الوقت الضائع ! .

٧ ـ المستقبل :

كنت أستمع إلى أغنية قديمة لأم كلثوم فى التليفزيون حين جاء ابنى يحدثنى بحماس شديد عن تخطيطه للمستقبل وتطلعاته الجامحة للشهرة فى عالم الفن الحديث . أمعنت النظر فى استغراق « الست » فى الغناء وذوبان القصبجى فى عوده وعبده صالح فى قانونه والحفناوى فى كمانه .

كنا نقرأ لطه حسين وعباس العقاد فماذا تقرأ اليوم يا بنى ؟ . . كنا نجد القدوة حين نبحث عنها فى أى كهف فأين تجدها اليوم يا بنى ؟ لم أشأ أن أحبطه فدعوته للصمت عله يتعلم كيف يستمتع معى بالاستماع .

٨ ـ الاختيار :

وقفت أمام الكتب أجتر فراغى . لقب نظرى كتابان متجاوران على أحد الأرفف عنوان الأول « ما ينفع المسلم من البخارى ومسلم » ، وعنوان الثانى « عاشق الأختين » . أردت مداعبة البائع دون رغبة فى الشراء فسألته بوقار أن يقترح لى أحد الكتابين لأقرأه . أجابنى بوقار أشد :

ـ اشتر الكتابين على أن تبدأ بقراءة الثانى ثم تعقبه بالأول مباشرة .

ظننت أنه ينتهز الفرصة لرفع مبيعاته . لكنه أثبت لى صدق نيته حين سألته عن الحكمة من هذا الترتيب فقال لى :

ـ العبرة بالخواتيم ومن الخير أن تأخذ بالأحوط !

٩ ـ الماضى :

حكمت على الظروف القاهرة ألا أعيش زمنى أبداً . فى الطفولة عشت مرحلة الصبا بحكم اليتم والاضطرار للعمل المبكر . فى الصبا عشت الشباب إذ نفر منى الصبية لاعتقادهم بأننى أتعالى بأفكارى عليهم ، وفى الشباب عشت كهولتى فلم يكن لدى متسع من الوقت للحب والمرح . وهأنا أعيش اليوم شيخوختى المبكرة قبل الأوان وبلا أمل .. إننى لست حزيناً على مراحل عمرى التى لم أحيها فى حينها ، لكنى أستثنى منها طفولتى الضائعة .. أفديه بعمرى كله من يعيدها إلى !.

١٠ـ الحـــل :

أهلكني القلق فسألتها الحل فقالت :

ـ يجب أولاً أن تعرف موقعك على الكوكب بعد أن تعرف موقعه من الكون وموقع الكون من صاحبه .

قلت لها :

ـ كم أنهكتني المعرفة .

قالت :

ـ لا جدوى من معـرفتك مـا لم تكتـشف تفاهة المسـألة وتدرك مدى عجزك .

شربنا حتى الثمالة وقالت فى أسى :

ـ ليتك تستطيع العثور على الكلمات التى لم تقلها .

قلت لها بثقة شديدة :

يبدو أن الحل ليس سهلا كما يتصور البعض .

* * *

القصة المكررة

ظهر فى حينا فجأة . استأجر شقة صغيرة فى بيتنا يقيم بها وحده . نراه يوماً بطوله جالساً إلى المقهى ويوماً آخر بالمسجد ويوماً لا يفارق شقته ، وحين تعبق رائحة البيت بالبخور فهذا ينبىء بوجوده .

دائماً هاش الوجه وان كان لا يحادث أحداً إلا فيما ندر . ظن البعض أنه مجذوب وظن البعض الآخر أنه هارب من حياته لسبب غامض .

شديد الطول نحيف القوام وإن كان يبدو فى أتم صحة رغم تجاوزه الستين . كثر تهامس النسوة عنه . قلن إنه فقد أسرته بكاملها فى حادث . قلن إنه مصدوم فى زوجته أو فى ذريته . ولم يخل الأمر من حديث عن وسامته وعن ذلك البريق الغامض الذى يشع من عينيه .

دفعنى الفضول إلى الاقتراب منه فى حذر . فتشت فى الظروف المحيطة وفى خفايا النفس عن موضوع يصلح كمدخل إليه ، يليق بوقاره ولا يصطدم برغبته فى الوحدة ، فلم تسعفنى القريحة بشىء ، ومما زاد من حيرتى أننى لم أوفق فى اختيار المكان الأنسب : أيكون المقهى أم المسجد أم شقته العبقة برائحة البخور ؟ ! .

بدأت بالمسجد . تعمدت الصلاة بجواره . صافحته بعد الختام فابتسم فى وجهى وقال :

- تقبل الله صلاتك يابنى .

ثم انصرف عنى إلى تسبيحاته . ظللت أنتظر لفترة طويلة حتى يفرغ من استغراقه الشديد فى عالمه ولكنى لم أطق صبراً فقلت إن المقهى سيكون أنسب .

حين أقبلت عليه كان يدخن النارجيلة فى شراهة أهل الدنيا . رحب بى ودعانى لتناول كوب من الشاى . تحررت قليلاً من توترى وارتباكى وأعددت نفسى لاقتحام سره ، لكنه فاجأنى بابتسامة واثقة وهو يسأل فى رقة واستكانه :

- ماذا تريد منى ؟

لم أدر ماذا أقول له على وجه التحديد . أجبته متلعثما ولكن فى صدق :

- نحن جيران وأنا فى شوق للاقتراب منك .

- لماذا ؟

- لست أدرى .

- كم عمرك ؟

- أربعون عاماً .

- ماذا تعمل ؟

- أعمل مدرساً .

- ما أقدسها من مهنة . لعلك تقدركم هى عظيمة مسئوليتك .

- نعم أقدر ذلك ولكن ما عملك أنت ؟

- أنا لا أعمل حالياً .

- فماذا كنت تعمل من قبل ؟

- لم أترك مهنة الا وخضت غمارها حتى أصابنى الملل .

- وكيف تكسب قوت يومك ؟

- مستورة والحمد لله .

لم يكن مبالغاً في قوله إذ أسفرت رقابتى المكثفة لتحركاته عن اهتدائه الدائم فى يسر إلى فقراء الحى ، حيث يغدق عليهم من خيرات ما لم يحلموا به . لكنى سألته متطفلا .

- أبحاجة أنت إلى عمل جديد ؟

- لا ، فقد انتهى عهدى بالعمل . أنا الآن أنشد الراحة والصفاء .

ثم أشاح بوجهه عنى وكأننى لست جالساً بجواره .. هام فى شرود عميق ثم قام فجأة ودفع ثمن المشروبات للنادل ، وحين تذكرنى قال فى هدوء :

- السلام عليكم .

وانصرف مسرعاً إلى شقته المواجهة لشقتنا مباشرة .

منذ سكن هذا الغريب بيتنا الحافل بالضجيج والشغب ، حل به

السلام وسكنته الطمأنينة فامتنع الشجار وانقطعت أسباب الخلاف وبات الناس يتساءلون عن سر المحبة التي ثملوا بنشوتها في غفلة من الزمان .

في المساء كنت أفكر فيه بعمق والحيرة متمكنة مني ، ورغبتي في النفاذ إلى سره قد تضاعفت ، حين ترامى إلى سمعي عزف شجي على العود صادر من شقته .

كان أفراد أسرتي يغطون في نوم عميق ، بينما خيم صمت غير عادي على البيت بأكمله في تلك الليلة لغير ما سبب .

جلست بكل حواسي أستمع إلى العود في نشوة وسكينة وخشوع . لم أدر أن الدموع تنساب في غزارة على وجهي إلا حين توقف العزف .

وجدت نفسي مساقا بقوة مجهولة أطرق بابه في رجاء أصيل .

فتح الباب وبدا أنه لم يفاجأ بزيارتي . قال بابتسامته المعهودة :

ـ أمازلت مصراً ؟

ـ بل إني أتوسل إليك .

ـ أدخل

قبل أن أجلس أمرني بالوضوء فتوضأت ثم سألني .

ـ هل صليت العشاء ؟

-نعم عقب الأذان مباشرة .

-إذن فلتصل ركعتين شكرا لله على قبولى لك

شعرت لأول مرة بشئ من الاعتراض على هذا الغرور العارم ، فمن يظن بنفسه هذا الطويل المبتسم الغامض ؟! لكنى حين صليت فما كان شكرى لله على قبوله لى كما طلب ، وإنما على نعمه التى لا تحصى .. لمحت العود موضوعا على أحد المقاعد فقلت له بحرارة :

-إن عزفك مؤثرة للغاية .. هل أنت موسيقى ؟

-قلت لك أننى أمارس شتى الحرف .

-لكن الموسيقا فيما يبدو هى حرفتك الأساسية .

-الموسيقا ليست حرفتى وإنما هى دنياى التى غرقت فى لجتها حتى اليأس

تأملت كلماته بحرص حتى أفهم مرماه بينما كان يرقبنى فى فضول ، ثم سألنى .

-هل مازالت مصرا ؟

-بل لقد ازداد إصرارى .

-سوف أرهقك .

-سأتحمل .

-ولا تسألنى عن خصوصياتى مرة أخرى .

كلما ازداد استبداده بى وجدت نفسى أزداد خضوعاً لسحره وسطوته . نسيت فضولى الطاغى لمعرفة سره وتنازلت عنه فى لحظة دون أن أعرف لذلك سبباً .

ـ لن أسألك وسأكون طوع أمرك .

ـ فلتبدأ بحفظ القرآن .

ـ كله ؟!

ـ كله

ـ قد يستغرق هذا سنين عديده .

ـ ثم عليك بتعلم العزف .

ـ لكنى أفتقد الموهبة

ـ لو لم تكن موهوبًا لما أتيتنى دامعاً .

ـ لو تفرغت لحفظ القرآن وتعلم الموسيقا فلن أجد وقتا لممارسة مهنتى التى أرتزق منها .

ـ احترس فى انتقاء كلماتك فلا أحد يرتزق من مهنته .

خشيت الاستمرار فى المجادلة حتى لا يحرمنى من مجالسته لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى عن رجائه .

ـ سؤال أخير لا أستطيع كتمانه .

ـ اسأله .

ـ ما الحكمة من وراء ما تطلبه منى ؟

ـ لن تستوعبها الآن .

ـ لماذا ؟

ـ الطريق طويل رغم قصره والزاد قليل رغم وفرته .

ـ أغثنى بها من فضلك وكرمك .

تفرس فى وجهى طويلا ثم قال بثقة شديدة :

ـ الجميع يرحلون .. والقصةمكررة .

.. ثم دعانى إلى مشاركته الطعام والشراب .

* * *

حـــــال

لو كنت قادراً على هداية نفسى لاهتديت إليك منذ زمن بعيد ، فمـا أكثر اللحظـات المصيـرية التى أتـانى فيهـا هـاتفك ولـم أستجب له . لكن توقيت المـشيئة مدهش ومثير ، إذ ترك الأبواب كافة وجاءنى من بـاب التأمل .. البـاب الذى يرضينى ويريـح قلبى .. ففى لحظـة تكون الحيـاة حافلة بمـجموعة مـن المـسلمات الراسخة فى العقل والروح ، وفى لحظة أخـرى تخلو تمـامـاً من أى أثر لهـا .. ومـا بين اللحظتـين أتقلب بين الدهشـة والرضـا وبيـن الذهول والقبـول وبين الحزن والسرور .

رأيت أبى وقد استحال جسده العملاق فى ختام رحلته إلى كومة من العضلات المرتخية ثم مات فلم يعد له وجود فى حياتى ، بعد أن كان يملؤها بإشراقة وجهه البشوش وكلماته الحلوة ، ودعواته الصادقة ولقد ذهب بجسـده عنى لكنى استبقيت منه بشاشـة الوجه وحلو الكلمات وصادق الدعوات ، رغم أننى كنت واقفاً على حافة المقبرة وهم يهيلون التراب على جسده الطاهر فما هو الموت ؟

استعمت إلى زوجة صديقى تقول لى عنه فى التليفون :

- انه إنسان حقير شاذ .. خسارة أن تكون صديقه .

وكانا قد تزوجا عن حب ، وأنجبا عن حب ، وعاشا فى حب .. مسلمات لم تهتز لحظة فى خاطرى فما هى الحياة ؟

قرأت عن شاب قتل أمه بأن ظل يطعنها فى صدرها بالسكين بكل قوته وهى تفر منه متوسلة إليه أن يرحمها دون جدوى ، فمن هو الإنسان ؟

شاهدت أخى يسقط ميتا على الأرض وهو فى عنفوان شبابه على أثر ضربة ضعيفة من صديقه فى مباراة ودية للملاكمة . كان مثالا للجد والاستقامة وطهارة القلب ، فلماذا الكبر والعناء والمكابدة ؟

أحبتنى كل النساء اللاتى كذبت عليهن فى جاهليتى ، أما التى صدقت معها وتزوجتها فلم تعرف كيف تحبنى . تركتها ومعها قطعة منى .. أحبك يا ابنتى لكن ما هو الحب ؟

اختلف الحكام فتحاربت الجيوش وقتل الشباب بعضهم بعضا تحت رايات القانون والنظام والدولة والجيش والجهاد والاستشهاد والسيادة والانتصار والشجاعة .. ثم تصالح الحكام وتبادلوا الورود والقبلات والسجائر ، فتساءل أهالى القتلى عن سبب قتل أبنائهم ولم يجبهم أحد فما الحرب ؟

ضاعت ثروة الرجل فجأة ورأيته بعينى يتحايل فى ذلة للحصول على ثمن وجبة طعام لأسرته فما الحظ وأين الاجتهاد والمثابرة ؟

أعطت حياتها لزوجها وأبنائها وراعت الله فى كل ما فعلت . ما فكرت أن تفعل فهجرها زوجها سعياً وراء داعرة لا قلب لها فما هو الإخلاص وما هى الخيانة وأين راحت المسلمات ؟

أمسكت بالسارق وعرفت الراشى وأبلغت عن المرتشى وحاربت المعتدى ولم يتغير شيء فأين الأمان ؟ أقاتل على الجبهة لا سترداد أرض بلادى فيسرق اللصوص أرض آبائى وأجدادى .

لا مسلمات إذن فى هذه الحياة ولا قاعدة تثبت فى دنيا الأغيار ولا مفر من التسليم لك وحدك فأنت الثابت الأوحد والقيوم المطلق .

قال لى رئيس الأركان :

ـ تمهل يا جدار وأعد النظر فى قرارك

لم أشأ أن أقول له كيف أبقى بالجيش وقد خذلنى .. كيف تتركون أرضى نهبا للصوص وتجار المخدرات يغتصبونها وأعجز عن استردادها .. أين أنت الآن يا رئيس الأركان بعد عشرين عاما من ذلك اللقاء والحال باق على ما كان عليه ؟ ! قال لى بثقة :

ـ أنا أعلم بقضية أرضكم المسروقة ولكن مادام الأمر معروضا على القضاء فالجيش لا يمكنه أن يفعل شيئاً .

إذن فعلى بالذهاب إلى من يفعل كل شيء .. بل يقول للشيء كن فيكون .. إن كنت حقاً أريد أرضى وأنا عاجز عن فهم معانى الموت والحياة والإنسان والحب والحرب والحظ والاجتهاد والمثابرة والإخلاص والخيانة والأمانة ، وإن كنت حقا قد تعلمت أنه لا مسلمات فى دنيا الأغيار فلا بديل عن الذهاب إليك .

* * *

اصطحبت سائقاً خبيراً بمساجد القاهرة ومقامات أولياء الله الصالحين وأهل البيت . أنا أعرف أن بابك مفتوح وأنه لا وساطة بين مخلوق وبينك لمن شاء أن يعرج إلى باب حضرتك . أنا أعرف أننى أبدأ من درجة دنيا فى مقامات التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا وآلاف المقامات التى تجاوزها إلى جلالك السالكون .

ولأنى أعرف أن درجتى دنيا ومطلبى دين ، ولأنى أعرف أنك تحبنى معرفة يقين ، فإنى لجأت الى من أحببت من أوليائك الصالحين ، لا من باب الوساطة وإنما من باب الاقتراب ، ففى محبة المحبوب قرب من الحبيب ، والمحبة ثمرة المعرفة ، وأنت الحبيب المطلق الذى يفعل ما يشاء ويحكم بمايريد .

وقف السائق بعربته أمام باب مسجد السيدة زينب ونزلنا معاً على باب المسجد . رأيت شيخاً وقوراً أبيض الوجه والملبس والشعر والذقن والحاجبين متطلعاً إلى فى لهفة غريبة .

ـ أين أنت ؟ نحن ننتظرك من زمان

تلفت من حولى لأبصر من يخاطبه هذا الشيخ فلم أجد سواى . سألته فى دهشة :

ـ أنا يا عم الشيخ ؟

ـ نعم أنت .

دهش السائق أيضاً فقال للشيخ بنبرة ساخرة :

ـ يا مولانا .. إنها أول مرة يزور فيها آل البيت فى حياته .

تجاهله الشيخ وواصل حديثه إلى .

ـ لماذا تأخرت كثيراً ؟ إنها تريدك .

فى لحظة ذهولى ودخولى انطلقت الزغاريد من حولى وانتابنى شعور بأننى مخلوق بلا جسد .. هكذا فجأة !! لا مسلمات أبداً فالتسليم لك وحدك .

بعد أن أنهيت صلاتى فى جوار المقام رأيت رجلا مسناً يبكى بحرقة وينهنه بكلمات غير مفهومة ، حين هبط على الهاتف آمراً إياى أن أحتضن هذا الرجل وآخذه فى صدرى ففعلت .

هل أنكر ما حدث ؟ لا .. لقد شهق الرجل ثلاث مرات متتالية وكف عن البكاء وتبدل حزنه سكنية ورضا . هل أنكر ما حدث ؟ لا .. إنه راح يضحك من قلبه ويقبلنى ، ثم انخرط فى تعبده . كان سائق التاكسى ينظر إلى متوجساً بين الحين والآخر من خلال المرآة الأمامية يريد أن يقول لى شيئاً لا يعرفه فيفضل الصمت ، لكنه يعاود اختلاس النظر إلى من جديد ، وحين يكتشف أننى أرصده من خلال نفس المرآة يسارع بغض بصره فى ارتباك واضح .

فى مقام السيدة نفيسه انهمرت دموعى تنظف قلبى من خرائب الشيطان وعلا صوت بكائى . حين سألنى السائق وعيناه متحجرتان فوق قطعة خبز صغيرة ظهرت فجأة فى موقع سجودى .

ـ لم تبكى يا أستاذ ؟

ـ لن تفهم ما بداخلى ولن أستطيع أن أفسره لك .

وكلما انحنيت متأهباً للسجود رأيت وجهاً شديد البياض تحت جبهتى تماماً . كلما سجدت فوقه شع نوراً من حولى . خشيت على نفسى من الجنون وحمدت الله أن السائق كان يصلى بجوارى حتى، أساله بعد الصلاة إن كان قد رأى ما رأيت .

ما إن انتهينا من الصلاة حتى فوجئت به يندفع نحوى قائلاً وقد اختفى الوجه تماماً من موقع السجود :

ـ هل رأيت الوجه الذى كنت تصلى عليه ؟

« اللهم صلى على سيدنا محمد » .. هكذا صاح قائد الكتيبة مهللاً حين أقبلنا نحوه قبل بزوغ الفجر ساحبين كل ما كان بملاجىء القاعدة الإسرائيلية من صواريخنا المسروقة سام٢ ، سام ٣ .. إن السؤال مازال يطن فى أذنى حتى اليوم :

ـ لماذ لم يضربك اليهود وقد رأوك وجنودك تسحبون الصواريخ ؟

كنا فى مرمى نيرانهم وكانت المسافة تسمح بتدميرها فلماذا تركونا نفوز بالغنيمة دون انتقام ؟

قال القائد :

ـ إن طلقة واحدة من جانبهم لو أصابت صاروخاً من هذه

الصواريخ فإن المنطقة بأكملها تتحول إلى كرة من النار تشوى القاعدتين المصرية والإسرائيلية .

وأشفقت عليه كثيراً لأنه لا يستطيع أن يدرك أن الله هو الذى أشل أيديهم عنا بمشيئته وحده . وكان غطاء سميك من المشمع موضوعاً فوق مقام سيدنا الحسين لحمايته من آثار اصلاحات جارية بسقف المسجد .. ما إن رفع الغطاء حتى هبت من تحته لفحة صهد حارقة تراجع لها شيوخ المسجد فى هلع إلى الخلف وهم يصيحون .

ـ لا إله إلا الله .

وقال لى الهاتف :

ـ أمسح المقام بيديك على الفور .

ففعلت ، وإذا بالحرارة تذهب والمقام يبرد ، وتهب نسمة كأنها من ريح الجنة معطرة أرجاء المقام : وإذا بشيوخ المسجد يصيحون وهم محلقين فى وجهى :

ـ الله أكبر .. الله أكبر .

وتجمعوا من حولى يربتون على ظهرى وصدرى ، وأنا لم يكن لى أدنى علاقة بنفسى فى تلك اللحظة وما تلاها من لحظات ، حتى أننى أبصرت نفسى جالساً بمنزل السائق وقد تحلق أفراد أسرته من حولى ونحن نتناول الطعام جميعاً .. وكنت على يقين من أننى سوف أسترد أرضى المغتصبة .

* * *

تقاسيم قصصية

الدخـول :

تمنى أن يعمر طويلاً . عاش عمره محافظاً محاذراً يخشى العلة والمرض . تجنب الانفعال والكدر . تحاشى الحزن والضجر . مارس الرياضة بانتظام . لم يعرف السيجارة أو الكأس والسهر . حضر أفراح أبنائه وبناته . داعب أحفاده وأبناء أحفاده .. ولما تجاوز المائة وهاجمته شياطين الشيخوخة أيقن أنه مهزوم لا محالة . فلا المال ولا الأبناء ولا الأحفاد أعانوه على صد ذلك الهجوم الشرس .

مقام أول :

في البداية لم أفهم الحكمة من أن أكون الطفل الوحيد في الحارة الذى لا أب له . ثم تطور الأمر إلى شعور بالغيرة والألم ، وكان عذابى فوق احتمال طفل . سألت أمي في لوعة .

- كيف مات أبي ؟

- سقط فجأة ودون مقدمة .

- ألم يكن مريضاً ؟

- بل كان صحيحاً فوق العادة .

حالت فطرتى دون الجرأة على التمادى فى المزيد من الأسئلة ، وفى تلك اللحظة زرعت فى قلبى بذرة الإيمان .

مقام ثان :

عولت على الحب كثيراً فمنحتها قلبى وروحى . ظننت أن الحب يغنينى ويعطينى فلم أعد أريد شيئاً . عشت حياة الاستغناء فكنت ملكاً متوجاً بالرضا والحبور . عرفت الفرحة فرقصت وطربت وأكلت وشربت وانتشيت وكان طعم نومى لذيذاً . ثم غابت عنى إلى غير رجعة فتعلمت أن كل شيء إلى زوال ، وان البديل عن التسليم بالقدر والاستسلام له هو الجنون . اعتصرنى العذاب قبل أن أدرك أنه من الحكمة ألا يعول الإنسان على شيء أرضى .

مقامان متداخلان :

استبدت بى الرغبة فى النجاح والتفوق والتفرد . كان خصمى عنيداً فاحتدمت بيننا حرب طاحنة لا تنطفيء نيرانها ولا تكف قنابلها عن الانفجار . كانت براكين الحقد والغيرة والغضب تشتعل فى صدر كل منا حين يحقق الآخر نصراً مرحلياً عليه . تبددت معانى القناعة والرضا وتسربت السنوات دون حياة ولم يكف أحدنا عن القتال .

وفى معركة ظنناها حاسمة ظهر فجأة خصم ثالث فقضى علينا معاً .. وفتحت قبضة يدى متفحصاً ما بها فلم أجد شيئاً .

وقفت أرقب البنايات الشاهقة التى قمت بتصميمها وتنفيذها . ها هى تمتلىء بالسكان . تضم بين جدرانها قصص حياة جديدة لا أحد يعرف نهاياتها المحتملة . أمعن النظر فى عيون المتزوجين حديثاً . تسعدنى رؤية الأمل فى حدقاتهم يشع بريقا متوهجاً ، فما أسعدهم

بحدود رؤيتهم الضيقة ، وما أتعسنى بحكمتى ، وما أعذب الجنون .

تمردت على أيامى وعشت حياة جديدة حافلة بكل مثير ، دمرت كل نظام يخضعنى للثبات أو التكرار أو حكم العادة . أسافر . أبيت يوماً فى فندق ويوماً عند صديق ويوماً فى بلد آخر . أسهر حتى الصباح يوماً وأمضى يوماً آخر بطوله نائماً بلا طعام أو شراب . أنهل من نبع الحب حتى آخر قطرة وأضحك واقهقه وأبكى على فراق الأحبة .. وفى النهاية كان لابد أن أعود ، أما لماذا فهذا ما لست أعرفه .

مقام رابع :

عابر سبيل التقيت به لأول مرة .. تحدثت معه بمودة عجيبة . كان الصفاء يغمر وجهه . أفرغت بأدق أسرار حياتى فى قلبه دفعة واحدة . قادتنى إليه المصادفة فقادنى إلى صحبته لأشاركهم النشوة . التقيت بقوم ذوى حدائق غناء رابية فى صدورهم ، تعبق روائحها بالمسك والفل والياسمين . انعكست ابتساماتهم الشفيفة على روحى فشعرت أننى أخف ولم أدر بنفسى إلا طائراً فى جنة من الأحلام الملونة . غمرتنى نفحة من النور حولتنى إلى وهج موسيقى بنشوة الحب الأزلى الخالد . فيالها من مصادفة ، وياله من عابر سبيل التقيت به لأول مرة ولم أعثر عليه بعد ذلك أبداً .

عدة مقامات متداخلة :

كانت رحلتى طويلة لكنى كنت أخفف من إرهاقى بالتوقف عند محطات عديدة . أنفض أحمالى عن كاهلى وأتحرر من ملابسى ولحمى

وجلدى حتى أسترخى فى سلام غير عابى بشىء . بعد ذلك أواصل رحلتى في هدوء دون أن أنظر خلفى ، حتى أتوقف عند محطة تالية . غير أنى كنت فى بعض الأحيان أواصل السير بلا توقف رغم مرورى أمام بعض المحطات .

تعرضت فى الطريق للسرقة من الزمن عدة مرات ، وكلما أخذت الحذر منه مرة نسيت فى المرة التالية فسرقنى من جديد .

وفى يوم اقتربت من محطة عنوانها « إن الباب الذى تدفعه ريح المقارنة لا ينفتح إلا على جحيم » .. فأدركت أن رحلتى قد أوشكت على نهايتها .. وحين خلعت عنى كل شىء ونمت كان شخيرى عميقاً .

الخـــروج :

واجه التأفف والتضرر ونظرات الإهمال والتهرب ونكران الجميل بروح متسامحة وعقل واع بكارثة الوجود وجماله . لكنه تمنى لو لم يعمر طويلاً .. وفى مرحلة متأخرة أدرك أن أفراحه وأتراحه وأبناءه وبناته وضياعه وممتلكاته ، لم تعد جميعاً أكثر من ذكريات غير جديرة بالتذكر .. واستسلم فى هدوء لقدره المحتوم .

* * *

أخـــي

حين قصد رجل أخا له في الله يستعين به على أداء دين عاجل فأعطاه ما يريد ، ثم دخل على زوجته يبكي ، قالت له في دهشة بالغة :

- ما يبكيك وقد كان في وسعك أن تعتذر له ولا تعطيه ؟

أجابها والندم يمزقه :

- ما على المال أبكي ، ولكني أبكي لأنني ضيعت حق أخي فلم أتفقد حاله ، حتى حملته على أن يسألني .

بهذه الشفافية الروحية كان أخي يعاملني طيلة حياته ، فقد كان ميسور الحال ذا تجارة واسعة ورزق وفير . أما أنا فقد كنت ومازلت أكن له بالغ المودة والامتنان على أخوته الحقة لي . كان يختلق الأسباب والمناسبات حتى يفيض على من كرمه بحنان بالغ دون أن يشعرني أنه يعطيني شيئاً من عنده . وأغلب ظني أن دافعه إلى هذا المسلك الكريم كان نابعاً من يقينه بأن العاطي هو الله . ولقد لحظ على يوماً بعض الحياء والحرج ، فأراد أن يوصل ذاك المعنى الشفيف إلى عقلي بأن حكى لي طرفة عن رجل نزل من بيته حاملاً مبلغاً من المال بنية التصدق به على أول محتاج يلقاه في طريقه ... وما إن غادر بيته حتى التقى أول ما التقى بفقير من أبناء الحي ، لكنه لم يكن يحبه لسبب لا يدركه . ربما كان يتشاءم من رؤياه ، أو ربما كانت ملامحه تثير الارتباك في كيمياء جسمه فتسلبه الشعور بالطمأنينة والارتياح ،

أو ربما لم يكن لهذا الشعور الغامض من سبب على الإطلاق ، فليس على القلب سلطان يأمره أن يحب ويكره .

فى البداية تردد قليلاً قبل أن يقترب منه . وللحق فإن هذا الفقير هو الآخر لم يبتسم يوماً فى وجه الرجل رغم الجيرة ، وإنما كان دائماً يتحاشى الاقتراب منه ويتفاداه كلما شاءت الظروف أن يلتقيا فى طريق دون أن يدرى هو الآخر سبباً ملموساً لذلك التباعد .

وحين حسم الرجل تردده استوقفه على الفور ماداً له يده بالمال قائلاً فى لهجة حيادية موارياً بها ضيقه وتردده :

- خذ .. هذا المال ليس لك .

حين نطق بهذه العبارة شعر بارتياح شديد ، إذ عبرت بصدق عما يعتمل فى ضميره ، فهو لا يعطى المال لهذا الفقير لذاته ، وإنما يعطيه لله جل شأنه .

لكنه فوجىء بالفقير يمد يده بثقة ودون حرج ليأخذ منه المال قائلاً بنبرة الظافر المنتصر :

- هات .. فهذا المال ليس منك !

منذ أن حكى لى أخى هذه القصة لم أعد أشعر بحرج حين يزورنى محملاً بالملابس الجديدة لأطفالى السبعة حيناً ، ولى ولزوجتى حينا آخر .. أو حين يحضر فى بداية كل عام دراسى فينقدنى مبلغاً كبيراً من المال يفى باحتياجات العام الجديد .. أو حين يحضر

فى عيد الأضحى حاملاً معه نصف خروف أو فخذ عجل فيندفع نحوه أطفالى يقبلونه ويتلقون منه أوراق البنكنوت الجديدة اللامعة ذات الطرقعة اللذيذة فى سعادة وحبور .

ورغم زوال حرجى وحيائى منه إلا أنه لم يخطر ببالى طيلة حياته أن أتوجه إليه يوماً لأسأله العون فى أزمة طارئة ، وكم من الأزمات غير المنتظرة يواجهها من هو مثلى فى هذا الزمان وهذا المكان من أرض الله الواسعة بحيث لا تستطيع معونة الأخ أن تصد وحدها جحافل الالتزامات الحياتية الجوهرية ، ويكفى أن يتعرض الموظف منا لأزمة صحية تحتاج إلى عملية جراحية يعد اللجوء حيالها إلى التأمين الصحى بمثابة الانتحار .. ذلك ظرف واحد على سبيل المثال ، لا مبرر لنسج ظروف مماثلة على منواله وإلا ظللت أكتب حتى الصباح .

ولطالما فكرت بعمق فى طبيعة العلاقة بينى وبين أخى فلم أجن غير الارتباك والحيرة . ذلك لأننى ـ كأى إنسان ـ أفكر بأداة التفكير الوحيدة عندى وهى العقل . ولما كان عقلى يعانى من فساد شديد فى الجزء الأعظم من خلاياه بحكم تكوينه الغربى ، إذ نما وتربى على نصوص غربية فى مجالات الفكر الإنسانى كافة ، كالعلم والفن والأدب ، فإنه كثيراً ما كان يتناقض فى تصوراته للأمور مع الجزء الأدنى من خلاياه السليمة ، مما ينعكس على بحالة من التشويش الذهنى أقرب ما تكون إلى حالة مسطول تعاطى من الحشيش أكثر مما يطيقه دمه ، فراح يهيم فى عوالم متناقضة لاضابط بينها ولا رابط .

يقول لى عقلى حينا إننى غير مستحق لما أتلقاه من أخى من عون لا ينتهى ، يبدو أنه لن ينتهى إلا بموت أحدنا ـ وهذا ما حدث بالفعل ـ فهو يشقى ويكدح للحصول على هذا المال ، متعرضاً للقلق والسفر والأرق وتقلبات السوق وتغير السياسات وغدر الشركاء ، أما أنا ففى جميع الأحوال أتقاضى راتبى كل شهر وأتناول عشائى كل يوم ثم أصلى وأنام فأحلم وأضرط وأشخر غير عابىء بشىء فى هذا الكون على الإطلاق . . أفبعد ذلك يكون من العدل أن أستحل لنفسى عرقه ورزق أولاده ؟ !

وتنجذب عواطفى بقوة إلى خلاياه السليمة ليقول لى عقلى نفسه إن عطاء أخى حق لى وواجب عليه . وتستنيم جوارحى لهذا التكاسل المثمر فأبحث فيما كتبه العلماء حول هذه المعضلة ، لأجد أن للأخوة عندهم منازل ثلاث : أدناها أن ينزل المرء أخاه منزلة خادمه فيقوم بحاجته من فضلة ماله ، فإن سنحت له حاجة أعطاه إياها ولم يحوجه إلى السؤال وإلا اعتبر مقصراً فى حق الأخوة .

أما أوسطها فأن ينزل المرء أخاه منزلة نفسه ويرضى بمشاركته فى ماله وينزل منزله وقيل كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

وأما أعلاها فهو أن يؤثر المرء أخاه على نفسه ويقدم حاجته على حاجته وهذه منتهى درجات الحب .

ويصيبنى ذهول شديد حين أكتشف أن الأخوة المشار إليها هى

الأخوة فى الله ، فهى حق إذن على الأغراب فما بال الأقارب وما بال الأخ الشقيق الذى نزل إلى فضاء الكون من نفس الرحم ؟ ! .

هكذا يقودنى عقلى دائماً إلى الحيرة بين جانبيه المتناقضين ، فيما يضاعف كرم أخى من تلك الحيرة ويؤجج نارها التى ما كان أسهل من إخمادها لو عرف الشح طريقه إليه أو أصيب بداء الخوف على نفسه وماله من عينى فابتعد وانزوى . حينئذ كنت سأجد العديد من المبررات التى تضعنى بلا معاناة فى صف أحد الجانبين المتصارعين : فإما أن أقول أن كل إنسان حر فى أوجه إنفاق ماله الذى حصل عليه باجتهاده ، وإنه غير مسئول عن مساعدة غيره ممن لم يستطيعوا أن يوفروا بعقولهم وأبدانهم حياة كريمة لأنفسهم لا تحوجهم إلى الغير ، وإما أن أقول إن أخى هذا لا يعرف شيئاً عن قضية الرزق وعن حقوق الأخوة ، وإنه بخيل جاحد لنعم الله ينكر صلة الرحم ، وإن اللجوء إلى الأصدقاء وقت الحاجة أكرم وأشرف وأهون من اللجوء إليه ألف مرة ، وربما تزيد إلى ألفين أو ثلاث طبقا لتناسب الرقم مع حدة الغضب أو شدة الحاجة والله أعلم .

لم أخلص من حيرتى إلا على قول صديق :

ـ من الحمق أن تنشغل بفكرة تدبير الأرزاق ، ومن الجنون أن تنشغل بفكرة توزيعها .

صرفت اهتمامى كلية عن التفكير فى تلك القضية ، وارتحت

لخلاصى من حساسيتها . لكن باعثاً غريباً أثارها مرتين متتاليين بينهما فاصل زمانى صغير .. فجأة وعلى غير انتظار !

فى المرة الأولى كنت أقرأ جريدة يومية حين وقع بصرى على خبر وفاة راقصة شهيرة بعد أن بلغت من العمر أرذله ، وذكر فى الخبر أن المجارى قد انفجرت قبل وفاتها بفترة داخل مسكنها فطفحت المياه بالغرفة التى تحوى صورها التذكارية المتعلقة بعملها منذ امتهنته فى شبابها وحتى اللحظة الأخيرة فأفسدتها تماماً . وحين جاء عمال الإصلاح صرخت فى وجوههم بعصبية شديدة :

ـ تاريخى كله ضاع فى المجارى !

لجأت إلى خلايا عقلى بشقيها الفاسد والسليم معا بعد أن توصلت إلى صيغة عربية تلفيقية توفيقية مؤقته للجمع بينهما ، محاولا التوصل إلى أدنى علاقة يمكن العثور عليها بين قراءة هذا الحدث وبين إصابتى المفاجئة بداء الحساسية تجاه عطاء أخى وكرمه ، فلم أفلح ! .

ما الذى جعل موت الراقصة العجوز وثورتها العارمة على تاريخها الضائع بفجران فى نفسى بركانا كنت أحسب أنه خمد منذ مقولة الصديق ؟ .. على أية حال هناك أمور ثلاثة هى الحساسية والموت وتاريخ الميت ، يمكن محاولة إيجاد رابط بينهم ولو على سبيل الرياضة الذهنية ، لعل هذا الرابط يقودنى إلى مفتاح للعلاقة الغامضة بين الموضوعين .

ولقد وصف المحرر مشهد تشييع جثمان الفنانة الشهيرة بعبارات تفيض بالحزن والأسى وهو يذكر أن عدد الفنانين والفنانات الذين شيعوا الجنازة لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة ! .

فى المرة الثانية قال لى الترابى أمام مقبرة أبى :

لا داعى لقطعة الرخام . وفر ثمنها لأولادك .

ـ لماذا ؟ . . لقد طلب تثبيتها على مقبرته قبل وفاته .

ـ ليكن فى علمك أنها ستسرق فور انصراف المشيعين ، ولن يهنأ بها قبره ليلة واحدة !

ـ كانت أهم وصاياه الاهتمام بتسجيل تاريخ وفاته .

ـ نحفر التاريخ على جسم المقبرة نفسه فيتعذر محوه أو طمس معالمه مع الزمن .

فى هذه المرة أيقنت أن الموت ذو علاقة وثيقة باستثارة قضيتى، لأن الظاهرة نفسها تكررت فى المرتين . ولقد أجمعت خلايا عقلى على ذلك اليقين بعد إضافة ظاهرة الزمن إلى الظاهرة المتكررة لتصبح المسألة أكثر تعقيدا عن ذى قبل .

والآن حان وقت حسم هذه المسألة . . فمن السخف أن أظل أعانى إلى أجل غير معلوم من ازدواجية شعورى تجاه كرم أخى الحاتمى، الذى يشعرنى بالذنب حينا ، وبطمأنينة الاستحقاق بحكم السماء حينا آخر .

انتظرت قدومه محملا بالعطايا كعادته وقد أضمرت ألا أقبلها إلا بصفة قرض طويل الأجل ، ترد قيمته كاملة أو مقسطة حين ميسرة .

ولقد نويت أن أرفض بشدة قبول عطائه ما لم يقبل اقتراحى . كان هاتفا خفيا يهتف بى أننى اعلم أنه سوف يرفض ، وان هذا قد يسعدنى رغم انه سيوقعنى من جديد فى ورطة الحساسية ، وأننى يجب ألا أستسلم لضعفى البشرى أمام المادة حين تأتى بغير عناء مهما كان الاحتياج إليها ملحاً . غير أنى كنت واثقاً أنه حتى لو وافق على اقتراحى كرماً منه ومراعاة لحساسيتى الشديدة فإنه محال أن يتجاوز فكرة القبول بالقول المنطوق إلى فكرة أن يمد يده ليأخذ منى جنيهاً واحداً .

ومرت أيام عديدة ولم يزرنى . اتصلت كثيرا بمنزله وبمكاتبه المتعددة فى مختلف الأقاليم ولم أوفق فى العثور عليه . التمست له العذر لكثرة اشغاله ولم أغضب ، فمثله لا يجوز مطالبته بما يطالب به ذوى المهنة الواحدة الذين يتمتعون بقسط وافر من الفراغ . إنه يعمل فى الحديد والأسمنت والمقاولات البحرية وتجارة الأقمشة والأحذية والمواد الغذائية وأشياء أخرى لا أعرفها . أما ممتلكاته العينية والمادية فلم أفكر يوما أن أسأله أو أن أسال عنها أحدا من أفراد الأسرة ـ الذين يتطفلون على حياته ـ وذلك لسبب وحيد هو أننى أفتقد أى دافع لمثل هذا السؤال فالأمر لا يعنينى بأى حال لانه من شأن صاحب الأمر وحده .

بعد مضى شهور ثلاثة اتصل بى هاتفيا يعتذر عن طول غيابه ، وليبلغنى أن المقعد الصغير الذى كان قد وعد به أحد أبنائى ليذاكر عليه - بدلا من مقعده القديم المتهالك - قادم إلينا فى الطريق على عربة من عربات إحدى شركاته .

وقبل أن أسأله متى سوف نتمكن من رؤياه قال لى بنبرة حاسمة :
- المقعد ثمنه خمسون جنيها .

وسمعت رنين تليفون آخر ، فكان مضطرا لأن يعتذر لى ويستبقينى على الخط حتى يخاطب محدثه على الخط الآخر .. ولما طال حواره معه حول صفقة أقمشة من التى تغطى بها نعوش الموتى ، انتابتنى قشعريرة شديدة وتمنيت أن ينهى معى هذه المكالمة المرعبة وحمدت الله أن فعل على الفور .

لكنى لم ألبث أن تذكرت عبارته الأخيرة عن ثمن المقعد فلم أفهم مقصده ، وبمرور الأيام وفى غمرة اختفائه الطويل نسيت ما دار فى هذه المكالمة وبدأ القلق يساورنى عليه .

ولقد صدق حدسى ، إذ علمت بطريق غير مباشر أنه يعالج فى الخارج من مرض غامض ، وأنه أوصى أبناءه ألا يعلنوا هذا النبأ إلا بعد عودته

على فراش المرض جلست بمواجهته أشد من أزره متمنيا له الشفاء والصحة من صميم قلبى الملتاع . سألنى بصوت واهن متجاهلا دعائى :

ـ هل وصل المقعد ؟

شردت قليلا .. أيها الإنسان ما أغربك ! .. أهذا وقته ؟ ! ..

ـ وصل من زمان ، وإنني لا أعرف كيف أشكرك .

ثم راح في غيبوبه طويلة . استدعينا طبيبه الخاص الذى بانت على وجهه امارات اليأس بعد أن فحصه واطلع على تقاريره الطبية القادمة من الخارج . قال لى الطبيب هامسا بعد خروج زوجته من الغرفة :

ـ الأمل ضعيف جدا ، ولكن الله موجود .

هزتنى الصدمة من الأعماق وداهمنى ألم الخوف من الفراق . لكنه أفاق فجأة لينتشلنى من غمى . ما إن رآنى حتى قال لى منازعا وفزع غريب يشع من عينيه الذابلتين :

ـ متى ستدفع ثمن المقعد ؟

ومات بعد سؤاله بدقيقة على وجه التقريب .

* * *

رجـع الصــدى

بعناية فائقة راحت « نسمة » ترتب المائدة استعداداً للوليمة المرتقبة . على مقعد الصدارة سوف يجلس حسن فهو رب الأسرة وحبيبها . هنا تجلس نرجس وبجوارها يجلس وحيدها الصغير . وهنا علاء وبجواره ابنته .. أما هي فلا يعنيها على أى مقعد تجلس . المهم أن تقوم على خدمتهم جميعاً وترقب الفرحة فى عيونهم حتى ينتهوا من التهام الطعام كله .

منذ سنوات عديدة لم يجتمع خلالها شمل الأسرة ، وهى تتناول وجباتها على مقعد حسن ...يخيم الصمت على كل الغرف ويخص بمعظم ثقله البغيض غرفة المائدة . محطة الموسيقا تعمق من أشجان الوحدة . المحطات الأخرى أغان خليعة وأحاديث مستهلكة وبرامج مبتذلة . أما أفلام التليفزيون فتذكرها بأحداث شهدتها غرف المنزل تثير الذكريات البهيجة ، وحين تفيق منها على المقاعد الشاغرة فإنها تفقد السيطرة على دموعها .

كثيراً ما استمعت إلى أناس يحدثونها عن مرارة الشعور بالوحدة. تألمت لألمهم ودمعت عيناها تعاطفاً معهم ليقينها من أن الوحدة شيء مخيف شديد القسوة . لكنها ما كانت تتصور أن تعانى هذا الشعور بمثل ما كابدته اليوم لدرجة التوحد معه والذوبان فيه ،

بحيث أصبحت فى غنى عن الحديث عنه لمخلوق . بل ان مفردات اللغة أصبحت تعجز فى ظنها عن التعبير الصادق عن مشاعرها الحقيقية .

لم يفلح الراديو ولا التليفزيون فى تبديد وحشة الصمت أو كسر شوكة الوحدة ، وبخاصة فى غرفة المائدة وأثناء تناول الوجبات . فى تلك اللحظات المحددة يخيل إليها أنها تفتقد القدرة على الفهم أو ربما الرغبة فيه وتتمنى ألا يكون فى هذه الحياة شيء له معنى حتى لا تدخل اختبار الفهم مضطرة .

فى تلك اللحظات تثبت مؤشر الراديو على محطة تتوسط محطتين عاملتين لتستمتع بصوت التشويش والشوشرة الجامعة بين ما تبثه المحطتان من أصوات متداخلة تحوى الغناء والأحاديث ونشرات الأخبار والموسيقا بحيث لا تفهم شيئاً معقولا يمكن أن تلتقطه أذناها .

وكم كان يسعدها أن تكون احدى المحطات بلغة أخرى غير العربية لكى تزداد المسألة تعقيداً ويستحيل الفهم حتى لو أمكن الاستماع .

منذ أحببت حسن ، وحتى من قبل أن يتزوجنى كنت على يقين من صدقه . لقد عاهدنى ألا تفرق بيننا قوة على وجه الأرض . رغم ذلك فقد غاب عنى . تركنى أتقلب وحدى على الفراش الذى كنت أزاحمه فيه وأرفسه خلال نومى المتوتر بقدمى مرة وبركبتى مرة أخرى . حين يكون مزاجه معتدلا يقول لى :

- إن الملائكة تداعبك يانسمه

وحين يكون مهموما يقول لى :

- أنت تنامين كالعفاريت

ومرة دفعته بكوعى فى وجهه فقام بهدوء وأعد لنفسه فراشا على الأرض نام عليه دون أن أشعر . وفى الصباح قال لى :

- هذا أفضل بكثير من عاهة فى أنفى أو عينى .

سوف تكون المكرونة حمراء فى لون الدم . انه يحبها كذلك . لقد وضعت بها كثيرا من حبات الثوم المقطعة قطعا صغيرة كطلبه . أما طبق اللحم هذا فمخصص له وحده لأنه غارق فى البصل ، والأولاد لا يحبون البصل . فليأكلوا من المشوى أو المسلوق أو المحمر كيفما شاءوا .

لم ينس ولو مرة واحدة فى حياته معى أن يبسمل قبل أن تمتد يده إلى الطعام ، ثم يقول بصوت عميق تخشع له جدران غرفة المائدة المزينة بلوحات خضراء :

- سبحان من حلل الحلال وحرم الحرام .

وفى سرعة البرق ينتهى من تناول وجبته ، رغم أنه لا يكف عن نصح الأولاد بالبطء فى الأكل حرصا على مستقبل المعدة والقلب ، وللمزيد من الاستمتاع بلذة الطعام وحمدا لله عليه وشكرا .

ولأنه لم يكن قدوة للأولاد فيما يقول فإن علاء ونرجس كانا يسبقانه فى الإجهاز على أطباقهم وهم يرددون نصيحته ضاحكين من الأعماق .

وضعت زهرية الورد فى منتصف المائدة ونظرت فى ساعتها وقالت تحدث نفسها بمشاعر حيادية :

- باقى ساعة على انطلاق مدفع الإفطار .

ثم عادت إلى المطبخ لتتذوق ملوحة الطعام وتجس درجة نضجه. اليوم لا مبرر للتشويش والثرثرة لأنه يوم ذو معنى . أدارت مؤشر الراديو إلى محطة محددة . كانت أصوات الجيران وهم يعدون طعامهم تتصاعد إلى مسامعها كأنغام مرحة تشعرها بالأنس والفرحة .

للجو رائحة محببة قبل انطلاق المدفع فى فصل الخريف . رائحة تمتزج فيها سكينة النفس بطمأنينة القلب ، تحملها نسمة ذات لسعة خفيفة من البرد المنعش اللطيف .

لم يبق الا أن تتخلى عن حيادها فى هذا اليوم المفترج وتترك نفسها للفرحة ، فانطلقت إلى غرفة المائدة كراقصة باليه تحركها أنغام سحرية تنبعث من أعماقها المسرورة وهى تدندن بأغنية حالمة .

هنا مقعدك يا نرجس . هل تذكرين ما فعلته لأجلك ؟.. لقد تحديت مجلس الكلية بأكمله حتى تعينى معيدة بالقسم الذى أرأسه .

احتج خصومى من الأساتذة مستندين إلى شكوى الطالبة المنافسة ، ولكنى خلطت الحق بالباطل لأنتزع لك المقعد منها ونجحت باقتدار . يومها قالت لى أم هذه الطالبة بحرقة :

ـ منك لله يا ظالمة .

اكتفيت بالاشفاق عليها لأنى اعتقدت أنها ما كانت لتفعل غير ما فعلت لو كانت مكانى .

إن الجيل الجديد من أساتذة ومعيدى وطلبة الكلية فى هذه الأيام يختلفون عنك كثيرا يا نرجس . فأنت تفوقينهم ذكاء وعلما ولماحية وأناقة وجمالا وأدبا وتربية .

ولكن ما إن حصلت أنت وزوجك على درجة الماجستير حتى تبدلت دنياى وتمنيت أن أفعل أى شئ حتى لا تغيبى عن عينى مثلما غاب حسن . وتذوقت طعم الشعور بالظلم يوم لم يكن هناك مفر من أن تنفصل دورة حياتك عن دورة حياتى وينفض الالتحام الحميمى بينهما . لقد أصبح لك زوج تحبينه وولد هو قرة عينك ، أما أنا فقد انتهى دورى وتضاءلت أهمية وجودى فى فلك حياتك .. يالقسوتك يا نرجس وانت تبخلين على بمجرد اتصال هاتفى تسألين فيه عن صحتى ومزاجى .. هذا الخرشوف المحشو باللحم المفروم والملئ بالشطة والفلفل الأسود صنعته خصيصا لك . كليه بالهناء يا حبيبتى ولكن احذرى أن يأكل منه صغيرك لئلا يؤذيه لهيبه الحارق .

لم يبق على انطلاق المدفع سوى نصف ساعة .. راحت وجاءت في قلق شديد . تساءلت لماذا لا يحضرون جميعا أو حتى البعض منهم قبل انطلاق المدفع ليتحدثوا معها ؟ ..

أم أنهم سوف يأتون لمجرد تناول الطعام ثم ينصرفون ؟

* * *

- سلمت يداك يا نسمه

هكذا كان يخاطبنى علاء بعد تناوله الطعام . يدللنى كما لم يدللنى أبوه . ينادينى باسمى و يداعبنى ويعبر لى فى كل مناسبة عن حبه لى وتعلقه بى . يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة ليرضينى رغم احتفاظه لنفسه بقراره . يقول لى إنه لا يستطيع أن يتصور شكل حياته ومعناها حتى لو بلغ الشيخوخة دون أن أكون بجواره أو قريبة منه ، وإلا فمن يعاكس غيرى من أجمل السيدات ويقول لها بنبرته المرحلة :

- تعالى هنا يا بنت لأبوس يدك .

يالها من جاحدة تلك الحرباء التى اختطفتك منى فى غفلة من الزمان . عجزت عن التماس عذر واحد يبرر كراهيتها الشديدة لى وغيرتها الساحقة منى . منذ بداية الأمر لم أسترح لقبح وجهها وثقل ريحها حتى أننى سألت علاء :

- ألم تجد يابنى غير هذه العبوس لتعاشرها مدى الحياة ؟!

- القلب وما يهوى يا أمى .

الأرز بالخلطة . طبقك المفضل أيها الحبيب البعيد ، ولعنة الله على حب المال الذى جذبك من أحضانى إلى صدر هذه الحرباء . أنا أعلم أنها هى التى شجعتك على الهجرة ، فأنت آخر من كان يهتم بالمال وجمعه . أنا لا أريد أن أصدق أنك لم تتذكرنى ولو بهدية رمزية منذ زمن طويل . أنت لم تسألنى عن أحوالى المعيشية أو عما إذا كنت بحاجة إلى المال أم لا . . هل أنت ولدى الوحيد ؟ . . سوف أشكوك إلى ابنتك الصغيرة حين تحضر يا علاء . وسوف أجعل منها حكما بينى وبينك ، ثم أوصيها ألا تفعل بأمها حين تكبر مثلما فعلت أنت بى .

انطلق مدفع الإفطار . كانت المائدة حافلة بشتى المأكولات والمشروبات تتوسطها آنية الزهر الكبيرة وقد تفتحت ورودها بعد ارتوائها بالماء . لم تجلس نسمة على أحد المقاعد وإنما راحت تدور حول المائدة تتمم على الأطباق وتعدل من أوضاع الملاعق والسكاكين والشوك .

فى هدوء بالغ تناولت جرعة من شراب قمر الدين وقالت لنفسها إن حسن أو أى مخلوق آخر لم يكن بمقدوره أن يتحدى الموت . وبذلك تصبح العهود والمواثيق التى يتبادلها البشر غير ذات معنى ، ولكن لا بأس من اجترار الذكريات الحلوة ، كمداعبة الملائكة وثرثرة الأسرة المجتمعة حول مائدة الطعام وضجيج أصوات الملاعق والسكاكين وهى تصطدم بالأطباق متداخلة فى بكاء حفيد وصراخ ممثلة فى الراديو وصوت أجش يغنى من كاسيت عند الجيران .

كان الصمت المخيم على عقل نسمة فى تلك اللحظات أشبه بصمت النوم الذى قد تتخلله الأنفاس الهادئه حينا أو الشخير المزعج حينا آخر ، ولا بد أن تكون نرجس غارقة الآن فى نومها ففارق التوقيت بين مصر وتلك الولاية الأمريكية سبع ساعات كاملة. أما علاء فلعله ينعم الآن بأحضان الحرباء أو بمداعبة صغيرته الوحيدة، لكن عقله لابد صاخب بضوضاء التخطيط والترتيب وبراعة الإنجاز وإغراء المال وضجيج النجاح .

اتجهت فى خطوات واثقة إلى الراديو . حركت المؤشر . راحت تجمع الأطباق من المائدة لتعيد تفريغها فى أوانى الطبخ وهى مستمتعة بالتشويش والشوشرة والكلمات المتداخلة بلا معنى .

* * *

البوتقـــة

منذ الآف الأيام أجلس خلف نفس السائق فى نفس العربة لأذهب يوميا إلى نفس المكان ثم أعود منه . من قبل أن يولد جدى اعتدت الملل وشربت معه من ماعون واحد ، عليهم اللعنة جميعا : جدى والملل والماعون !

حفظت معالم هذا القفا الوسخ . أغبر الشعر كثيفه ،. نادر ما يقصه أو يغسله . احتكاكه بياقة القميص يصنع على حافتها خطا ترابيا بنى اللون ، يتحول بالتقادم إلى لون أسود كريه . كل يوم أراه .. أتفحصه رغم أنفى . أزحف بعينى إلى مؤخرة رأس عثمان الصغير كرأس كتكوت ... وتأتى سحابات دخان سجائره التى لا تنقطع فأكاد أختنق وأصيح به :

ـ كفاك تدخينا يا عثمان . الله يخرب بيتك .

يلتفت إلى بنظرة بائسة تحمل نفس لون أسنانه الصفراء المثرمة .

ـ لا أقدر يا بك .

وأغوص فى دماغى المشحون بالأفكار ذات الرغبة الجارفة فى الانصهار بقلب الحياة وفى الانفلات منها حينا آخر ، حتى أقف متأملا فيما يعتمل بذلك القلب من أشجان ، وفى جدوى إدراك هذا كله ثم الانفعال به فى موقف فعلى محدد .. فأرى أن المسألة برمتها لا تخضع لأكثر من احتمالين :

إما التعطش للنجاح وما يتبعه من شعور بالفخر والسعادة والاستعلاء ، وإما الفشل وما يذيله من تعاسة وشعور بالدونية ... وسقطت فجأة إلى الأرض بمعزل عن الزمن .

في كل صباح أسترجع ذنوبى أستعيد كل ما اقترفت فى حياتى من آثام . أقول شكرا يا رب لأنك تعاقبنى برؤية ذلك الشئ القذر كل صباح ولا تفعل بى ما هو أقسى من ذلك . ولكنى أقول أحيانا إنه يستحيل أن تكون هناك فى الدنيا عقوبة - أو ربما فى الآخرة - بمثل هذه القسوة : أن أرى قفا عثمان كل يوم . اللعنة !! .. لو كان سائقى الخصوصى لأمرته بحلاقة قفاه وارتداء قميص نظيف مكوى ولمنعته تماما من التدخين فى العربة . لكنه السائق الذى خصصته لى المؤسسة التى أعمل بها والتى لا سلطة فيها لأحد على الآخر بناء على أطنان من القوانين المائعة الهائمة التى تنظم العلاقة بين أفرادها فى فوضى لا مثيل لها فى الدنيا .

أنا لا أصلح نهائيا للعمل فى إطار هذه النظم أو المجموعات .. بل انى أرى نفسى وقد تناثر نسلى من حولى واتسعت ممالكى وتلاحمت وانفصلت . أرى التلاحم بأجنحة عصافير خضراء تزقزق وترفرف وتعلو ثم تحط على فروع الشجر فى طمأنينة . أما الانفصال فبأسلاك ألكترونية مكهربة، قاسية كالعقل باردة كالجليد . وأما الناس

فيمشون تحت الأشجار وبين الأسلاك بنفس القدرة . . وهذا ما أدى بى إلى المزيد من التردد والتعثر فى اتخاذ قرار ما .

يفهم مما سبق أننى عجزت عن تغيير السائق لأسباب إدارية ، لكن المصيبة أن هذا العجز راجع من جهة أخرى إلى بصفة شخصية . ذلك أن هناك رابطة خفية من التعاطف - « السادى المازوكى » - ربطت بينى وبين قفا عثمان عبر آلاف الأيام المنصرمة ، بحيث أصبح الاستغناء عنه - تماماً مثل الإبقاء عليه - أمراً مستحيلاً . . ففى الحالتين سوف يصيبنى مكروه لست أدرى إن كان مصدره من الإنس أم من الجان ؟!

رغم هذا كله فقد فكرت جديا فى قتل عثمان حتى أرتاح من قفاه اليومى المقرر ، ولكنى تمكنت من القضاء على شيطانى المجرم باللجوء إلى حيلة جهنمية وهى أن أتحدث بصفة مستمرة مع زميلى الذى يجلس بجوارى على المقعد الخلفى للعربة . . إما هذا وإما القتل !

لكن الحديث مع الزميل كان يعذبنى فوق ما تحتمل طاقتى ، حتى أننى ظننت أن تكسير الجبل فى ليمان طره أو أبى زعبل بالفأس بين المجرمين أشد هونا على نفسى من الحديث مع هذا الزميل ، وبالتالى رجحت عندى كفة الاغتيال فى البداية ، ولكن بقليل من التأمل تبين لى أنه لا فرق على الإطلاق بين عذابى برؤية قفا عثمان وعاقبة قتله تجنبا لمشاركة زميلى الحديث .

أما الذى جعل المسألة أكثر تعقيدا فهو أننى لا أحب الكراهية - تلك الآفة التى يحبها كثير من الناس دون أن يدروا - فكيف يجوز لى أولا أن أفكر بقتل مخلوق آدمى برئ قد يفضله الله على يوم القيامة ويدخله جنته محمولا على الأعناق ، بينما ادخلها زاحفا على صدرى ان كانت قد كتبت لى . . وكيف يجوز لى من بعد ذلك أن أستنكف الحديث مع جارى وهو كيان إنسانى من نسل آدم وحواء - مثلى تماما - بل إنه يجلس بجوارى هو الآخر منذ آلاف الأيام على نفس المقعد الذى أجلس عليه من خلف قفا عثمان الطويل والذى لا يمثل عنده أدنى أهمية .

لقد أعادنى الشعور بالذنب، إلى مملكتى المشتهاه ، فدعمتها بالحصون وملأت خزائنها بالذهب وعينت من نسلى حراسا وحكاما ثم تفرغت بعد ذلك لقتل مللى . . ذلك أنه فى أتون بوتقة الصهر تبين لى أن كل الأحداث التى عشتها تتحرك فى حياتى على شكل دورة تكرارية شديدة الملالة . . وحين انفلت مني القلب هام عنى وغمر لياليه فى الموسيقا والنساء والكأس والبخور الهندى والشعر الصوفى وأحاديث الجن وأغانى الملائكة وبقى الذهب فى خزائنة يعلوه التراب .

صحيح أن صفات هذا الزميل وطباعه تصيبنى بالغثيان ، لكن ضرورة الطعام والشراب والسكن والكساء تلزمنى جميعا بتحمل هذا الإنسان حين يفتح باب العربة وهى مندفعة ليبصق فى الطريق ، أو حين يوقف العربة - فى طريق عودتنا من العمل - لشراء الخضروات

والفواكه الرخيصة لنفسه ولأقاربه كل يوم ، حيث يمضى وقتا طويلا في المماطلة مفاصلا فى الثمن ليوفر بضعة قروش يستنزفها من بائع جوال يتحصل بالكاد علي قوت يومه . وبفضل هذه الممارسات أصل إلى منزلى متأخرا كل يوم عن ميعاد عودتى الطبيعى بما لا يقل عن نصف ساعة ، لأجد الأولاد قد تناولوا غداءهم بعد أن يئسوا من انتظارى .

زميلى الاضطرارى لا يكف عن ذم خلق الله وإحصاء نعمه عليهم بلسان حاد وقلب معتم وعين حارقة تصيبنى أحيانا بالرعب الشديد من الحياة والموت معا . ولكن مهما كان من الأمر فهو أخى فى الله ولا فرق بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى .

وأعاود انفلاتى من قلب الحياة . أستخلص نفسى من المصهور لعجزى عن الذوبان فيه والتوحيد بمكوناته الرهيبة ، مكتشفا فى النهاية ألا فائدة . ولكن ما العمل ، ولماذا لابد أن يكون هناك عمل ، بل وما دافع التساؤل ذاته عن أى عمل ينبغى أن يكون ؟! لقد دأبت الممالك المجاورة لممكتى الواسعة على حب الصراع والمنافسة والرغبة فى تملك المزيد من الأرض والماء والهواء والن.س والأشجار والبيوت والماكينات والحيوانات لسبب غير واضح .. وكان لابد من تأديبهم حتى يؤبوا إلى رشدهم وحتى يقنع كل بحدوده ويرضى بما هو كائن ، ولا تناوشه الرغبة فى الكبر والسيادة والتفوق والتميز .

إن ملامح أنف زميلى الحادة وتقاطيع شفتيه الحادتين الدقيقتين كشفرتى سلاح ، وأسنانه المدببة وأنيابه الطويلة وشكل حاجبيه

المعقوفين كشيطان ، وعلامات النهم المفزعة المرسومة على خطوط وجهه والمشعة من نظرات عينيه ، يذكروننى جميعا بالنهاية الذرية المرتقبة للعالم والتى قد تكون بمشيئة الله على يد حاكم مجنون بالبارانويا أو الميجالومانيا عاشق لفتنة العظمة والسيادة .. ولكن مهما يكن من الأمر فهو زميلى فى الإنسانية ، وليس من حقى أن أتكبر عليه أو أتعالى وأنا الذى خرجت من مجرى البول مرتين ، فالكبرياء لله تعالى وحده .

إننى يا إخوانى (!!!) أخاف من هذا الزميل . ولكن كيف لى أن أنسحب منه بغير أن أسبب لنفسى أو له الضرر . ثم كيف أتخلص منه ومن قفا عثمان فى آن واحد بغير أن أستقيل من المؤسسة وأتعرض - أنا وأسرتى - للجوع ؟ !

كل يوم أفكر بهذه المسألة وأنكوى بها حتى أنهكت مخى ، وكنت واثقاً أن وزن رأسى قد ازداد إلى الضعف لكثرة حضور شياطينى وانصرافهم طبقاً لتقلب أحوالى النفسية والمزاجية والمعنوية .

لقد انتهى بى الأمر إلى أن كتبت محاضرة مطولة بغية إلقائها على سكان الكون لأؤكد لهم ألا فائدة من كل هذا التعب - كان من الأولى أن أؤكد ذلك لنفسى أولا ولكنى لم أفعل - وأنه من الأفضل للإنسان - بصفة خاصة - أن يجلس ويستريح ويتأمل .. لكنى - ودائما لكنى - مزقت المحاضرة حين ضغط طنين عنيف على أذنى من كل مكان حتى كدت أفقد أعصابى . تكاثفت ضدى أصوات البشر والآلات المعدنية وأمواج البحر والزوابع والأعاصير . كل يقارن قوته بقوة غيره

فى تبجح واستفزاز . أصابتنى رغبة دائمة فى القىء وكنت متقززاً من نفسى أيضا ، حتى أننى فضلت فى قرارة روحى أن لم أوجد .

ولما كانت الحاجة أم الأختراع فقد اهتديت يوما إلى فكرة رائعة : أن أترك مقعدى وأجلس بجوار عثمان . وبدأت أمهد لتنفيذ فكرتى بالتعلل مرة بفساد مقبض الزجاج ، ومرة بارتخاء مسند مقعد عثمان لدرجة الارتطام بركبتى ... وأخيراً تجرأت باتخاذ القرار لتنفيذه صباح يوم محدد عقب آخر تمهيد اصطنعته لمغادرة مقعدى .

فى ذلك اليوم تقرر إضافة زميل ثالث لنا بالعربة بعد أن تمت ترقيته إلى فئة الإدارة العليا تلك الفئة التى لا يحق لغيرها ركوب العربات الصغيرة ، فبقية الموظفين يركبون الأوتوبيسات ويأكلون بداخلها وينمون ويدخنون ويتآمرون ويتشاجرون .

أخشى ما خشيته بعد تلك المفاجأة غير المنتظرة أن يضاف إلى كاهلى عبء ثالث بعد قفا عثمان وكيان زميلى ، ولكن القدر كان رحيماً بى إذ تبين بوضوح شديد أن زميلى الجديد يلتزم الصمت الأبدى طوال بقائه بالعربة وكأنه قد فرغ تماماً من إدراكه لحكمة الحياة الأزلية بمجرد جلوسه إلى جوار عثمان .

لم يبق إلا أن أشترى قميصاً جديداً لعثمان منتهزاً فرصة حلول أحد الأعياد حتى لا تكون هناك شبهة حرج من أى نوع ، رغم أنى أشك فى أن عثمان يتمتع بعفة النفس . ذلك أننى شهدت له أكثر من موقف حين كان على استعداد لأن يبيع رجلا بسيجارة ، فضلا عن أن الإفلاس

الدائم سواء عند عثمان أو عند غيره من أمة خلقه غالبا ما يسحق مثل تلك الحساسية ويزيل مثل ذلك الحرج . انتظرت فى اليوم التالى أن تكون فى مواجهة عينى ياقة نظيفة مشدودة بفعل كى المصنع، لكن الواجهة لم تتغير : قفاه الوسخ وياقة قميصه الأوسخ !

تجاوزت كل الحواجز الممكنة وسألته بوقاحة لا شك فيها :

- لماذا لم تلبس القميص ياعثمان ؟

- أعطيته لابنى يابيه .

- أنا أعطيته لك أنت لا لابنك .

- ولأجل من أعمل بالنهار والليل غير أبنائى ؟ !

قررت الاستسلام ولكنى لم أتنازل عن قرارى بزجره وحثه علنا على الاستحمام أو على غسيل قفاه بصفة يومية كحد أدنى ، وإن أراد ثمن قص شعره كل شهر فسوف أدفعه له بلا تردد .

وأذعن عثمان أخيراً بعد أن رشوته بعلبة سجائر ذات فلتر مخصوص ، وتغيرت معالم قفاه تغييراً جوهرياً من حيث النظافة والحلاقة ولكن لونه لم يتغير فتلك خلقة الله الكريمة .

ظننت أن الأمر قد اقترب من نهايته وأنه لم يعد لى مبرر للتبرم بمخلوقات الله من بنى الإنسان الذين أعجز عن تحمل عيونهم وأنيابهم وأقفيتهم . لكن حالى لم يتغير فالقفا فى وجهى كل يوم حتى أصبح يشكل لى كارثة تحوى فى طياتها كل عوامل عجزى عن الانصهار فى بوتقة إخوانى من بنى الإنسان .

عدت إلى مملكتى أستعرض جندى ومعداتى ومؤنى وذخيرتى ، فانتفخت أوداجى وطالت قامتى وطال لسانى واتجهت إلى كرسى العرش لأجلس بأنف تتساقط الأوهام من فتحتيه كمطر منهمر ، فقد انتهى كل شىء !! ..

ما إن جلست حتى أصابتنى ذبحة صدرية كادت أن تودى بحياتى ! ..

أول من زارنى من زملاء المؤسسة كان عثمان . ارتدى جلباباً أبيض وقص شعره واستحم قبل أن يأتى إلى بيتى .

ما إن رآنى فى حالتى الخطرة حتى أجهش فى البكاء بغير سيطرة على نفسه ، وسقط من بين يديه كيس صغير من فاكهة رخيصة .

* * *

الـــــزوال

- ١ -

لست أدرى لماذا أو كيف التهبت ذاكرتى فجأة بحمى استدعاء الموتى الغائبين من كل زمان ومكان منذ أن وعيت بالدنيا وحتى الأسابيع القليلة الماضية التى مات فيها ثلاثة من أقاربى وصديقان عزيزان وشجرة عجوز على ناصية حارتنا الضيقة .

لم أكن أتوقع أننى أتمتع بذاكرة شديدة الحدة بهذه الكيفية المفزعة . إنها تبتعث الشخوص من عدم الزمان المنصرم فى تعاقب مثير ، يحتوى الأموات وآخرين ممن اختفوا من حياتى لأسباب الدنيا المعروفة وربما لا يزالون على قيد الحياة لأسباب الآخرة غير المعروفة .

من المستحيل أن أفكر فى تسجيل هذه الشخوص ابتداء من الجد الأكبر وبائع الفول والبليلة ومدرس الدين الابتدائى وانتهاء بالكائنات الستة التى أشرت إليها من قبل . إن هذا الأمر بحاجة إلى عقل الكترونى لضمان الدقة والتسلسل والتصنيف المتجانس وانعدام السهو ، فالناس كثيرون : منهم الأهل والأقارب ومنهم الجيران وأصدقاء المدرسة والجامعة والعمل ومنهم الرؤساء والأساتذة والمعلمون والمعارف العديدة المتنوعة التى نشأت بحكم ظروف

وقتية ، ثم راحت لحالها مع غسيل المطر لأوراق الشجر وأتربة المدينة وقلوب المخلصين ..

فكيف لى أن أسجل بأمانة هذا الجيش البشرى الذى تسرب من حياتى بالتدريج حينا وبالمفاجأة حينا آخر ؟ .. إنها لمسألة بالغة الصعوبة ، فضلا عن أنها قد لا تكون أكثر من تجربة عديمة الجدوى لمن يطلع عليها .. والكارثة أن تنعدم جدواها عندى أيضا ، وبذلك لا يكون هناك معنى لأى شىء منذ لحظة سقوطى إلى الحياة ، حتى لحظة سقوط المطر الذى تحدثت عنه !

أعترف أننى عاجز عن ملاحقة ذاكرتى ، فهى تكتسحنى للمرة الأولى بهذه الكيفية ولفترة زمنية وجيزة لم تتجاوز بضع دقائق من الشرود المكثف لتلقى بى فى تلك البحيرة الراكدة فى الوعى بين الحياة والموت .. بسهولة أنجو من الغرق رغم شلالات الشخوص الهادرة الغائبة ، لا لأننى أجيد السباحة فى ذلك البرزخ المخيف ، وإنما لأن خالقى قد شاء على وجه اليقين نجاتى إلى أجل مسمى ، ولحين أن ينقضى هذا الأجل ستكون أشجار جديدة قد نمت وبيوت كثيرة شيدت وأخرى هدمت ، وعصافير هاجرت من قارة إلى قارة ، وربما ملايين أطنان من لحوم البقر أكلت ورصاص أطلق ونساء أُغتصبت ورجال فقدوا ذكورتهم ، وأشياء أخرى لا أعرفها سوف

تحدث لكل من له لسان ينطق به كلمات يمكن تدوينها وفهمها وتأويلها فى أى اتجاه .

لقد انتقل معظم هؤلاء الناس إلى الدار الأخرى مثلما غاب بعضهم فى هذه الدار الموقوتة بعد أن ترك كل منهم أثرا فى حياتى ولو بنظرة عين أو إيماءة رأس أو حتى بتجاهل وجودى بين الأحياء ! من هنا فقط كان يمكن أن أبدأ حتى أستطيع استثمار تلك الظاهرة الكونية المفاجئة التى ألمت بى على غير انتظار . كان على أن أكتفى بتدوين الآثار بغض النظر عن أسماء الراحلين أو الغائبين ، حتى أستطيع ملاحقة الاندفاع الصاروخى للذاكرة دون أن يفوتنى أثر واحد .. وأظن أننى نجحت فى ذلك إلى حد كبير .

ـ ٢ ـ

واقع الأمر أن خلاصة متابعاتى كما دونتها فى الورقة الصغيرة لم تكن مجموعة من أحداث جليلة مرت بى مع هؤلاء الذين استحضرتهم ذاكرتى فاستخلصت منها نتائج محددة قد تهم بعض الناس فى دنياهم التى تشتعل نارا لا يطفؤها مطر ، وإنما هى مجرد مقولات ليست من إبداعى ، إذ عثرت عليها منذ أعوام عديدة بين صفحات كتاب لا أذكره لكاتب لا أذكره نقلها عن عالم كبير لا أذكره .. ومنذ أن عثرت عليها لم تفارق ذاكرتى أبدا ، وكلما تذكرتها اجتاحنى شرود يموج فى حزن

يذوب فى شجن جميل .. العبارات جميلة بسيطة واضحة ، ورغم جمالها فإنها مخيفة ، ورغم بساطتها فإنها مركبة ، ورغم وضوحها فإنها قد تستعصى على فهم أعظم العباقرة حين يعملون عقولهم فى النفاذ إلى سرها الرهيب .

ما زلت غائصا فى أغوار تلك التجربة الغريبة . شلال ذاكرة الموتى الغائبين . صعوبة الملاحقة . الاكتفاء بتسجيل الآثار فى الذاكرة . محاولة التوصل إلى نتيجة ذات جدوى قد تفيد الآخرين . المقولة التى تمزج الدين بالفلسفة رغم ما بينهما من تناقض .. النزول إلى المجال التطبيقى بعرضها على نماذج مختلفة من الناس فى الطباع والثقافة والمستوى الاجتماعى وما إلى ذلك ، ثم تدوين نصوص الحوارات واستنباط نتائجها .

ـ ولكن ما جدوى هذا التعب كله ؟

ـ على الأقل نتسلى معا بشىء من الرياضة الذهنية .

ـ كيف ؟

ـ تحللين معى نتائج اللقاءات لنرى كيف يفكر أحياء اليوم فى أموات الأمس

ـ أنا أفضل أن نتسلى معا بشىء من الرياضة البدنية !

اقتربت منى وكانت نظراتها توحى بمعنى محدد لا يحتمل الشك فواصلت كلامى غير عابىء :

-وكيف يفكرون فى أحياء المستقبل وكيف ..

التحمت بى فى عناق لم أتمكن من الاستجابة له . قالت فى دلال :

-مسكين .. ألا تعرف أن متعة الجسد أروع فى أصالتها من متعة الذهن ؟!

لست أدرى ما الذى دفعنى إلى الإفضاء إليها بسر ما حدث لى ، وكأن السر قد ارتبط بتواجدها معى عقب عودتنا معا بعد دفن جثمان صديقنا المشترك .

فتشت فى عقلها عن مساحة تفهم لتلك الحمى التى انتابت ذاكرتى عن معنى الحياة التى عاشها الأموات ولكنى وجدت الحياة الحاضرة تحتل مساحة عقلها كاملة ، فامتنع التواصل بيننا .. وحين كنت على يقين من أن متعتى الذهن والجسد إلى زوال ككل الأشياء سألتها :

-أين الورقة ؟

أخرجتها فى لا مبالاة من صدرها ، وكان واضحا أنها لم تفكر

فى قراءتها قراءة صحيحة ولو من باب المجاملة . قالت لى :

ـ وجدت بها كلمة الموت فانتابنى خوف شديد على حياتى .

ـ لم لا نقرأها معا ونتأمل معناها ؟ !

راحت تحتمى بصدرى وكأنها ستموت بعد قليل .

ـ أنا أفضل أن تحتفظ بها لنفسك .

ـ ٣ ـ

كنت قد دونت العديد من الحوارات المنبعثة من الذاكرة المتدفقة ، واحتفظت بها فى ملف صغير أوليته بالغ عنايتى . . ثم عدت فاختزلتها فى عبارة واحدة بهذه الورقة . ألجأ إليها كلما صدمتى الأقدار بما لا أملك دفعه عنى . أتصور أن الكون على وشك الانتهاء بينما تتصور صديقتى أننى محوره الوحيد ، والعبارة المختزلة تقول :

ـ من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت

أهداها إلى بائع جوال يمر بحارتنا كل يوم . . لم يشعر أننى حين سمعتها تنفست بعمق ، فانبسط صدرى وغصت فى ملذات الحكمة وهجرتنى الصديقة .

* * *

ماكــو بــترول

كارثة كونية . معجزة سماوية . أمر إلهى . سمه أو سمها ما شئت . المهم أن ما حدث قد حدث . لقد توقفت آلات ضخ البترول توقفا تاما ، ليس فى دول الخليج فحسب ، وإنما فى الدول العربية المنتجة للبترول كافة وبلا استثناء . توقفت الآلات مرغمة لأن البترول قد اختفى فجأة من تحت الأرض ولم يعد له أثر وكأن وجوده من قبل كان حلما .

حدث هذا ليلة أن وضعت قدم السعد على أرض مطار دولة شقيقة لأعمل مهندساً فى إحدى شركات البترول بها . كنت قد تمردت فجأة على فقرى وصدأ خبرتى فى مصر حيث عشش التكاسل فى ذهنى والخمول فى بدنى وبت عاجزاً عن الشعور بمبرر إيجابى لوجودى على قيد الحياة .

فى الصباح قال لى مدير الشركة بمجرد أن اطلع على أوراقى :

ـ أهلا يا وجه الخير .

لم أكن أدرى شيئاً عما حدث ، وكنت أتعجب لمعالم الدهشة والفزع السائد على وجوه كل من التقيت بهم من مواطنين .

ابتسمت فى سعادة لحسن ما ألقاه من استقبال . دعانى للجلوس بنظرة مريبة قائلا لى :

- ألم تسمع الأخبار ؟

- أية أخبار ؟ !

- إذن فاسمعها معى . .

كان بجواره راديو صغير . رفع صوته حتى أتمكن من السماع . . أيها السيدات والسادة ليس فى الأمر دعابة سخيفة كما اعتقد البعض ، وإنما هى حقيقة لا تقبل الشك ، فأرضنا الآن خالية من قطرة بترول واحدة ، وكذلك حال كل الدول البترولية التى مازلنا على اتصال بها . . واعتبارا من هذه النشرة لن يكون هناك موعد محدد لنشرات الأخبار ، فسوف نوافيكم بكل ما يستجد من أمر هذا المصيبة أولا بأول ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

وعلى صوت الموسيقا العسكرية سألنى المدير الذى لا أستطيع إنكار خفة ظله .

- سمعت يا وجه السعد ؟ !

أجبته فى ذهول وقد استرجعت شريط الأحداث منذ لحظة اتخاذ قرارى بالتمرد ، مروراً بالدوخات السبع حتى جمعت نفقات السفر من الأهل والأصدقاء ، وانتهاء بشهيق الأمل الذى اتسع له صدرى على مقعد الطائرة حين غادرت مطار القاهرة .

- نعم .. لكنه أمر يستحيل تصديقه علمياً .

- يمكنك البقاء بالبلد على نفقتك لإثبات نظريتك ، أما نحن فقد صدقنا والحمد لله .

اختلط على الأمر فلم أعد أميز أهى بلد أم شركة !

- والعمل ؟ !

- ليس أمامك سوى أن تحمل كرامتك على ظهرك وتعود من حيث جئت ، فمعظمنا سيفعل نفس الشيء .

- ربما كانت ظاهرة وقتية لا تلبث أن تزول .

أيها السيدات والسادة جاءنا الآن النبأ التالى : تحركت القوات العراقية بجحافل هائلة من الجنود والمدرعات صوب الكويت وقد عاود صدام حسين ترديد مقولاته الشهيرة من طراز أم المعارك والمحافظة التاسعة عشر وإعادة توزيع الثروة بين العرب بالعدل . وفى الوقت ذاته بدأت الوحدات العسكرية البرية والبحرية لقوات التحالف الغربى فى الانسحاب من قواعدها عائدة إلى بلادها مخالفة بذلك نصوص المعاهدات الموقعة بيننا وبينهم والتى كلفتنا مليارات الدولارات ، هذا وقد صدر قرار عاجل من مجلس الأمن برفع العقوبات الاقتصادية عن ليبيا وقبول محاكمة المتهمين بنسف الطائرة إياها أمام محكمة دولية محايدة .

- وهل تعتقد أننا سوف نعطيك راتبا بلا عمل حتى يتحقق ظنك ياخفيف ؟

على استحياء شديد ألقيت بآخر أوراقى وأنا أحتضن اليأس :

- لكن هناك عقدا موقعا بينى وبين مندوبكم فى القاهرة

بهدوء شديد مزق العقد وألقى بقصاصاته فى سلة المهملات قائلا :

- بسيطة ياأخي . هذا هو العقد . أصبح لاغيا لانتفاء مبرر توقيعه .. ماكو بترول ماكو عقد .

- معك حق .

تأملنى بفضول شديد ثم سألنى برقة :

- قهوة أم شاى .

- ليمون مثلج .

قدم لى سيجارة وأرسل فى استحضار المشروب ، حين اقترحت عليه تغيير محطة الراديو . استجاب لى وحرك المؤشر إلى محطة دولة عربية على خلاف تقليدى مع الدولة العربية « الشقيقة » . قال المذيع بلهجة تفوح بالشماتة : فى نبأ عاجل لوكالة اليونيتد برس أن بنوك الغرب قد أعلنت لأول مرة فى تاريخها إلغاء العطلات الرسمية

والأسبوعية وساعات الراحة ، وأنها سوف تعمل لمدة أربع وعشرين ساعة إلى أجل غير مسمى ، وذلك بعد أن انهالت عليها الودائع الضخمة من مشايخ البترول العرب والسماسرة ورجال الأعمال وكبار المسئولين والأمراء وصغارهم وملوك العرب وزعمائهم ومناضليهم من كافة الملل والنحل والمذاهب والمعتقدات وألوان الجلد المختلفة .

ـ إذن فما يحدث حقيقة !!

انفجر الرجل في الضحك وغادر مقعده ليجلس بجوارى . ربت على ظهرى بمحبة وهو يقول :

ـ يبدو أنك إنسان شديد الطيبة .

ـ بل أنت كذلك ، وإنى لمندهش لحسن معاملتك لى رغم ما حدث .

ـ سوف تعرف السبب في حينه ، فضلا عن أنه لا مبرر للإساءة إليك وأنت ضيفي وضيف بلادى ولا شأن لك بما حدث إلا في مصادفة توقيت وصولك مع حلول الكارثة !!

رغم مرحه الفائق وحسن نواياه تجاهي إلا أننى شعرت بالحزن على نفسي وعلى بلادى وانتابني إحباط شديد انعكس على معالم وجهي. في تلك اللحظة حرك المدير مؤشر الراديو إلى محطة عربية «شقيقة» أخرى كانت تذيع تعليقاً سياسياً على حوار أجرته المحطة مؤخراً مع الكاتب الصحفي المصرى محمد حسنين هيكل . قالت

المذيعة » ومن أهم التصريحات التى أدلى بها هيكل قوله إننا بلا جدال أمام حقبة إسرائيلية لأن من يصنع الحقيقة هو من يستطيع أن يحدد جدول أعمالها وأولوياتها ، وهذا ما تفعله إسرائيل اليوم ، وعن انحسار دور مصر كدولة جامعة قال إنه لا يمكن لأمة أن تعيش بلا هوية تثق بها وبلا حلم تسعى إليه ، ولهذا يلجأ البعض إلى الموروث الدينى كحماية فى وقت أزمة ، وعن انهيار العالم العربى قال إن الجزائر تقع والسودان يتآكل والعراق وقع . لقد بدأت مرحلة التردى وعلى جيلكم أن يوقفها » .

تضاعف إحساسي بالإحباط وكدت أعجز عن التنفس من شدة اليأس الذى انتابنى فقلت له برجاء :

ـ أيمكنك أن تغلق هذا الجهاز الملعون ؟

أغلق الجهاز على الفور وقال :

ـ هأنا قد أغلقته لأنى لا أصدق هذا الرجل ، ولكن هل هذا يحل المشكلة ؟ !

ـ أى مشكلة ؟

ـ مشكلتك معنا ومشكلتنا مع شريكنا الغربى فى المؤسسة ومشكلة الحقبة التى يتحدث عنها هيكل .

ـ أعد فتحة إن شئت فقد تساوت عندى الأمور .

بعد فترة صمت رصاصية ثقيلة أعاد فتحه وحول المؤشر إلى

محطة إسرائيل . . صرح السيد رئيس الوزراء بأن جميع الاتفاقيات المبرمة مع العرب ابتداء من كامب ديفيد وانتهاء بغزة أريحا أصبحت الآن بالية تخلو من المعنى ، وأن الحكومة الإسرائيلية بصدد إصدار قرار سيادى بإلغاء هذه الاتفاقيات جميعا ، وعودة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل أكتوبر ١٩٧٣ .

تتابعت ضربات قلبى واصفر وجهى وظهرت قطرات عرق على جبينى فسألنى المدير .

- مم تخاف ؟

أخاف من خوفى على ضياع كل شيء ، فما ذنبى أن ولدت فى هذا العصر الممسوخ ؟

- أخشى ألا أجد طائرة أعود بها إلى مصر .

- لماذا ؟

- يخيل إلى أن الحياة فى منطقتنا على وشك التوقف .

انتبهت إلى أنانيتى المفرطة حين دخلت السكرتيرة معلنة المدير عن قرب موعد انعقاد اجتماع مجلس إدارة الشركة العاجل . أسرع المدير فى أعداد أوراقه بانهماك أنساه وجودى ، ولما استعد للانصراف وقفت حائرا لا أدرى كيف أتصرف . فوجئت به يأمرنى فى حسم :

- لا تتحرك من مكانك حتى أعود إليك فالاجتماع لن يستغرق وقتا طويلا .

رغم شعورى بالطمأنينة تجاه هذا الرجل إلا أننى لم أستطع أن أقاوم رغبتى فى العبث بمؤشر الراديو . قال المذيع المصرى « ولقد أصدر الرئيس حسنى مبارك توجيهاته .. » حركت المؤشر قبل أن يكمل المذيع عبارته ثم قررت إغلاق الراديو بصفة نهائية بعد قليل دخلت السكرتيرة وسألتنى فى رقة :

ـ مصرى ؟

ـ نعم .

تجمع ملامحها بين ملامح بنات إسكندرية وبنات الشام ولولا أنها تتحدث العربية بلهجة أهلها لظننتها سويدية أو نرويجية . لم يبد على وجهها أدنى انفعال للأحداث الجارية فسألتها :

ـ أراك سعيدة للغاية .. لم هذا ؟

ـ وأراك مبتئساً للغاية .. لم هذا ؟

ـ ألا تكفى كل هذه المصائب المتلاحقة للغم والكدر ؟

أدارت زر التشغيل . حركت المؤشر إلى محطة تذيع موسيقا راقصة وأغلقت باب الغرفة فى حركة مفاجئة . انتابنى ارتباك شديد وهى تقترب منى فى خطوات راقصة :

ـ أنتم يا مصريون تحبون الرقص .. وأنا مثلكم .

ـ ما هى جنسيتك ؟

ـ فى الوقت الحاضر لا يهم أحدنا ذكر جنسيته .. قم لترقص

معى .

- ماذا قلت ؟

- قم لنرقص

- على خيبتنا أم على شيء آخر ؟

- على الموسيقا

- من فضلك ..

- لا تخف . ليس بهذا الطابق أحد سوانا

- ليكن

- والمدير لن يعود قبل ساعة ، ولو رآنا فلن يعترض ، ولو كنت مكانك لرقصت طربا على حسن حظك .

- كيف ؟

- أمرنى المدير قبل دخوله قاعة الاجتماعات أمرا يهم ثلاثتنا .

ظننت أنها تهزأ بى .. عاودت سؤالى :

- ما هى جنسيتك ؟

- مادمت مصراً فأنا عربية .. قم لنرقص .

قلت فى حسم فاشل وركبتاى ترتعشان :

- من فضلك بماذا أمرك المدير ؟

- أمر بحجز ثلاث تذاكر على أول طائرة إلى مصر تقوم غداً

فقزت تلقائياً من الفرحة .

- ما معنى هذا ؟

- معناه أنه قد اختار أنسب الأماكن فى الدنيا ليبدأ حياته الجديدة بعد أن حدث ما حدث !.. كلام لا يخلو من منطق ، فلابد أن أسعار القصور فى أوربا ستقفز قفزات جنونية ، أما مصر فما أرخص أسعارها وما أطيب ناسها .

- وأنت ؟

- أنا ألازمه ىى كل مكان يستقر به .

- وأنا ؟ !

- لقد أصبحت مضيفنا بعد أن كنت ضيفنا .

- أمازالت دعوتك للرقص قائمة ؟!

- على خيبتنا أم على أى شىء آخر ؟ !

* * *

« البيت الملك »

جاءنى فرحاً مستبشراً حاملا معه خريطة كبيرة . وضع نظارته على عينيه وأفرد أمامى صفحة مشيرا إلى موقع محدد بين الخطوط الطولية والعرضية والمتقاطعة قائلاً بفخر شديد :

- هنا تقع أرضك

سألته فى دهشة معتوه :

- أى أرض ؟

إجاب ببساطة الواثق :

- الأرض التى ستشتريها بإذن الله .

- بماذا .. ولماذا ؟

- أما بماذا فسوف أوضحه لك ، وأما لماذ فتلك أتركها لزوجتك

قال لى أنهـا أرض « لقطة » رخيصة السعر وما على إلا أن أدفع مقدماً فورياً بسيطا ثم أسدد بقية ثمنها على أقساط « مريحة جداً » !

على الفور وردت إلى خاطرى صورة أسورة قميص متسخة بالتراب والعرق ، متآكلة الحواف . تحيط بمعصم سيد الرمح الجالس إلى جوارى فى اجتماع هام . كان حاضراً معى بصفتينا ممثلين للعمال والفئات بمؤسستنا الصناعية فى اجتماع لجمعيتها العمومية السنوية .. حين وقع بصرى على الأسورة شعرت بتقزز شديد ورغبة عارمة فى القيء ، ولم أتمكن من مواصلة الاجتماع لأنه - فضلاً عن ذلك - أرهقنى

بثرثرته الجاهلة ورائحته المقرفة .

كان راتب ذلك الزميل لا يتجاوز ثلث راتبى الضئيل فى ذلك الوقت . لكنه كان يمتلك بيتاً فى أحد أحياء المدينة . ولقد بدأ الأمر بشرائه قطعة أرض بالتقسيط ، ثم بناء أربعة طوابق على مراحل زمنية متباعدة بدأت منذ التحاقه بالعمل وانتهت بقرب إحالته إلى التقاعد .. وكانت الخاتمة ممثلة فى إسورته إياها وياقته البالية المتسخة وهو جالس بجوارى فى مواجهة الوزير ، يدخن من سجائرى حتى أتى عليها . قلت لصاحبى وهو قريب لزوجتى :

ـ هل تريدنى أن أفعل مثلما فعل سيد الرمح ؟ !

ـ من هو سيد الرمح وماذا فعل ؟

حكيت له حكاية الياقة والأسورة وأكدت له أن راتبى الشهرى لا يكاد يكفى لسد احتياجات أسرتى من الطعام والكساء والسكن ، وأن أى خصم منه سيكون خصماً من أحد العناصر الجوهرية المذكورة والتى تمثل واجباتى المقدسة فى الحياة تجاه أسرتى .

قلت له إننى لو وافقت على شراء هذه الأرض فسوف تكون نهايتى نهاية « رمحية » من أهم سماتها الياقة والأسورة والرائحة العفنة ومصاحبة الفول والطعمية دون غيرهما حتى نهاية العمر ، والاستيلاء على سجائر الآخرين ، ثم البيت الملك وأخيراً ميتة الكلاب بعد مفارقة الدنيا دون التعرف عليها أو تذوق ملذاتها المشروعة .

بعد أن انتهيت من « بماذا » توجهت إلى زوجتي بـ« لماذا » قائلا لها أنني - رغم كل تحفظاتي - مستعد لبذل المستحيل لشراء هذه الأرض بشرط أن تستطيع إقناعي بمعنى محدد ومنطقي يبرر لأي موظف محدود الدخل مثلي أن يمتلك قطعة من الأرض ، زفرت في غيظ ساخن :

- أنا التي تسألك عن سبب يدعوك إلى الاعتراض .

قلت لها إنني عاجز عن فهم فلسفة أن يمتلك إنسان بسيط مثلي قطعة من الأرض في بلادي التي هي قطعة ضئيلة من الكرة الأرضية التي هي نقطة في بحر الكون العظيم .. تلك الأرض التي سوف تفنى في لحظة والتي سوف أتركها وأفنى أنا الآخر يوماً ما .

قالت لي بدهشة استنكارية مقررة أمراً يقينيا بغير حاجة إلى الجدل .

- نتركها للولد والبنت .

تباعد فكاي عن بعضهما لمسافة تتسع لابتلاع وهم الحياة وحقيقة الموت معاً وأنا أسألها .

- لماذا ؟

بذلت أقصى ما بوسعها كي تتمسك بالصبر وقالت :

- ليستفيدوا بها وبما عليها من مبان .

- آه ...

-أو ليبيعانها بعد فترة زمنية يتزايد فيها سعرها أضعافاً مضاعفة.

-آه ...

ثم بدأت فى الصراخ قائلة :

-ان نتركهما مكتفيين خير من أن نتركهما محتاجين .

لو كان لدى فائض لما مانعت ولو لمجرد إرضائها ، لكنها تواصل استفزازى بتقديم الحاضر قربانا لمستقبل مجهول .

-هذا واجبنا فنحن من أنجباهما .

فسرت لها موقفى من الكرة الأرضية والكون ، وتماديت فى تفسير موقفى من الوجود والعدم وفى حتمية إرجاع الغيب إلى عالمه . قالت وكأننى لم أقل شيئاً وهى التى تعمل بتدريس الفلسفة :

-كثيرون دوننا - اقتصاديا واجتماعيا - امتلكوا الأراضى والمبانى .

وهنا بدأ الحوار يدور فى دائرة مفرغة لا نهاية لها . التزمت الصمت بينما التزمت هى بيت أمها غاضبة . لم تمض أيام قلائل حتى جاءنا خطيب للبنت يعمل ويقيم بصفة دائمة فى الخارج ولا يأتى مصر إلا لزيارة أسرته .. وفى اليوم نفسه وليس فى يوم آخر فاتحنى الولد برغبته فى الهجرة إلى أمريكا .

* * *

هجرة الطير الأخضر

كان عصفورنا الأخضر أرق من النسمة حين حط على حياتنا فى براءة وكأنه منحة من السماء ، ينشد أغنية الكون ويترنم بأسرار الحياة. يتقافز من حولنا فى بهجة والإشراق يطل من عينيه الجميلتين. يلتقط الحب بمنقاره الدقيق فى طمأنينة يقينية . يرفرف حول جداول المياه منطلقاً فى حرية لا يعوقه عائق . يلهو بيننا فى نشوة . نداعب بأناملنا جناحيه الرقيقين ونتحسس ريشه الناعم . يقبلنى مرة ويقبلها مرة فيبعث فى قلبينا طمأنينة ويبث فيهما قوة لا ترهب ضوارى الوحوش ولا تخشى عواقب الأيام أو غدر الأزمنة . سلمنا له روحينا وطرنا معه إلى ملكوت السماء . عشنا عاما فى ظل الجلالة والرحمة وهمنا فى جنات تجرى من تحتها الأنهار . لم نكن ندرى أننا كلما ابتعدنا عن الأرض آزددنا اقتراباً منها . لم تعرف نوايانا الطيبة أن هناك أفاعىونموراً تترقب هبوطنا إلى الأرض . تنتظر فى خسة أن تفتك بعصفورنا لتقطع الحبل الصرى الذى يصل دمى بدمها حتى نموت .

آه أيها الزوال اللعين .. لو كنا نعرف لما هبطنا إلى أبد الآبدين !..

قالوا لنا إن الحب محرم علينا وإن الماء محرم على عصفورنا . أمرونا أن نحبسه بيدينا فى قفص ، ولما امتنعنا انهالوا علينا بسياط

نارية حارقة موجعة تنفذ آلامها حتى النخاع . كان الشرر يتطاير من عيونهم لحظة أن وقعنا بين أياديهم ذات الحوافر الحديدية المدببة .

بأيدينا وضعنا عصفورنا فى القفص وأغلقنا عليه بابه ، حيث لا حب يلتقطه ولا ماء يرويه . تركونا مكبلين بقيود من فولاذ . كان قلبانا يتفطران ألما وحزنا على وهن العصفور الصغير ونحن نسمع بكاءه ووصوصاته النائحة الخافتة الحزينة . ود كل منا لو افتداه بعمره، وامتزجت على وجنتينا دموع القهر وقلة الحيلة حين أخذ بنا الإجهاد فرحنا فى غيبوبة الألم المقدس .

حين أفقنا لم نجد عصفورنا فى قفصه ، وإنما وجدنا ثغرة رقيقة تمكن من الهرب منها والنجاة بحياته مهاجراً إلى حيث الحب والماء والحرية .

جاءت الأفاعى والنمور وفكوا قيودنا وانصرفوا .. وبعد قليل مضى كل منا إلى طريق !! وكنا قد تعاهدنا أمام عصفورنا المهاجر ألا يفرق بيننا إلا الموت .

* * *

أسرار زوجيـــة

ـ ١ ـ

ما أن انتهيت من إحصاء المبلغ الضخم حتى مال إلى هامسا في أذني برجاء حميم .

ـ أرجو أن يظل أمر إيداع هذا المبلغ سراً بيننا .

ـ ذلك أمر بديهي يا طاهر بك في تعاملات البنوك مع عملائها

ـ أقصد ألا تعلم به رشيده .

سألته في دهشة شديدة .

ـ زوجتك ؟؟

أجاب بابتسامة لم أفهمها وهو يؤمئ برأسه في ثبات

ـ نعم

بعد انصرافه سمحت لنفسي أن أتعجب من سلوك جاري الثرى الذى يخفى عن زوجته أمراً كهذا .. وبعد وصولي إلى المنزل سمحت لنفسي أيضاً أن أفشي السر لزوجتي رغم علمي بصداقتها الوطيدة لزوجته .

تبادلت مع فاتن التعبير عن الدهشة والاستنكار لما حدث ، خاصة وأنهما ينعمان ببحبوحة عريضة من العيش لا نحلم بها مدى الحياة ، وفي النهاية اتفقنا على أنه ليس من حق أحد أن يدس أنفه في

شئون غيره .. ثم أمضينا وقتا طويلا ندير فيه أمورنا الحياتية مع مطلع الشهر الجديد .

لم يستجد شئ على طبيعة نقاشنا الشهرى حول توزيع الدخل على المستلزمات الضرورية ، وكالمعتاد أنهينا الحوار بمشاجرة زوجية تقليدية دارت رحاها فى إطار الحدود المحتملة التى لا يدرك أبعادها إلا أرباب الوظائف .

ـ ٢ ـ

فى أواخر الشهر نقلت فاتن إلى المستشفى لإجراء جراحة طارئة لم تكن تكلفتها فى الحسبان . فكرت فيمن أتوجه إليه ليقرضنى ما أحتاجه من مال فلم يخطر ببالى إلا طاهر بك ، رغم أن صداقتنا لا تسمح بهذه الدرجة من العشم .

لو فكرت فى صديق غيره لربما وجدته مفلسا مثلى ، أو كاذبا يتعلل بالأعذار لينجو بنفسه من مغامرة غير مأمونة العاقبة ، خاصة لو كان هذا الصديق من المقربين الذين شاركونى فى إنفاق سنوات العمر على الزمن . أما طاهر بك فانه مدين لى بكتمان سره ، ومن هنا قررت بكل ما أوتيت من نذالة بريئة أن أستغل هذا الدين لصالحى رغم استنكارى الشديد لفعلته الشنعاء .

ما إن طلبت منه العون حتى سارع بتقديمه . تفرست فى عينيه ومسحت معالم وجهه الماكر فتأكدت أن لم يمد لى يد العون مختاراً

من قلبه ، وإنما مضطرا أمام انتهازيتى المستترة والسافرة فى آن واحد . كلانا كان واثقاً أننى لو طلبت منه هذا القرض قبل أن يضع وديعته فى البنك ولو بساعة واحدة لما تردد فى الرفض ، فما أسهل التماس الأعذار والاتكاء على الأكاذيب فى مثل تلك الأحوال المباغتة .

بعد عودة فاتن إلى المنزل وتماثلها للشفاء ، انتظرت أن تمطرنى بعبارات الشكر والامتنان لحسن رعايتى ودوام ملازمتى اياها ليلاً ونهاراً ، وقيامى بواجبات الزوج الملهوف على زوجته خير قيام . لكنى فوجئت بها تمطرنى بسيل من الاتهامات .

« من أين حصلت على هذا المبلغ ؟ » .. « كيف أخفيته عنى من قبل ؟ » .. « لماذا لم تصارحنى بحقيقته ؟ » .. ليست هكذا تكون العلاقة بين زوجين مخلصين » .... وفى النهاية شبهتنى بطاهر بك الذى يخفى أسراره المالية عن شريكة حياته كما لوكانت عدوا له ، وراحت تكيل لى وله ولصنف الرجال كافة ، أسوأ الصفات التى تمكنت من الاستعانة بها من قاموس غضبها الموجع ، والذى لا أستطيع أن أنكرهأنه لم يتجاوز حدود الأدب والاحترام . ثم ركزت حملتها الهجومية فى آخر نوباتها على طاهر بك وحده وراحت تنعى على زوجته رشيدة حظها العثر الذى أوقعها فى زوج بخيل خائن مثله ، وهى - أى رشيدة - الزوجة الكريمة الأمينة الصادقة التى لا تستطيع أن تكتم سرا عن زوجها مهما بلغت تفاهته .

قلت لها ساخرا :

ـ ومن أين لك بهذه الثقة الشديدة فى ملائكية رشيده ؟

ـ لأنى أعرفها جيداً وهى لا تخفى عنى سراً .

ـ لعلك لا تخفين أسرارك أنت الأخرى عنها

ـ بالطبع

ـ حتى سر الوديعة ؟

ـ كنت أتمنى أن أطلعها عليه لولا خشيتى أن أكون سببا فى الوقيعة بينها وبين زوجها . قلت لها برزانة مملة مغلفة بخبث شديد :

ـ حسنا فعلت ، رغم أن هناك سبباً آخر يحتم عليك الكتمان .

ـ ما هو ؟

ـ أننى اقترضت تكاليف الجراحة من طاهر بك .

تلقت المفاجأة بوجوم بالغ حتى أننى تحولت تجاهها من الشماتة إلى الإشفاق فى لحظة واحدة .

قلت لها إنه لا يعيب أحدا أن يقترض من جاره وصديقة مبلغاً من المال يفك به ضائقته ، لكنها لم تقتنع ، فالفجوة الاقتصادية بينى وبين طاهر بك كانت فى نظرها عائقاً طبيعياً يحول دون تدعيم أواصر صداقة حقيقية بينى وبينه . ومن الغريب أنها تجاوزت ذلك العائق الوهمى بيسر شديد فى علاقتها برشيده ، أو هكذا ظننت غير جازم بما يحوى مُخ المرأة من أعاجيب ومتناقضات .

ذكرت لها الحديث النبوى الشريف الذى يعد بالجنة كل من يفرج عن مؤمن كربته مؤكدا لها أننا بهذا القرض صرنا أصحاب فضل على طاهر بك إذ أثبناه رغم أنفه .. والحق أننى كنت فى ذلك الحين على يقين من احترافى للكذب وإتقانه رغم حسن نيتى ورفعة مقصدى .

كان يبدو على وجهها أنها تخفى عنى شيئاً ما ، وأنها تعيش لحظات الصراع والتردد بين الفعل ونقيضه ، وكأنها تريد أن تبوح لى بما تخفيه ثم تعود فتتراجع خشية شئ ما ، وقد استبدبها شعور قوى بالذنب .

تغلب خبثى على اشفاقى عليها فقررت استدراجها إلى كمين محكم تعترف فيه بالحقيقة كاملة . قلت لها ببراءة شديدة الاستفزاز :

- لا حرج علينا مادمنا ننوي إعادة المبلغ حين ميسرة .

- ليس هذا ما يحرجنى .. إنما أشعر الآن بالضآلة أمام صديقتى

إذن فلم يكن ظنى فى محله .. والعائق الوهمى مازال يعشش فى تلافيف مخها الحوائى الأملس .

قلت لها بهدوء ومودة :

- لو شعر كل إنسان بالضآلة أمام من يقدم له العون لتوقفت الحياة .

تجاهلت قولى واندفعت فى كبرياء وحسم .

ـ اسمع سأعطيك المبلغ لترده إلى طاهر بك فوراً .. واليوم .

ما أسرع أن وقعت في الكمين فأصبحت هدفاً سائغاً لسخريتي وتسلطي .

ـ الله .. الله . ومن أين لك بهذا المبلغ يا زوجتي الأمينة ؟

قالت متعثرة في حيائها وارتباكها :

ـ ادخرته في السر على مدى سنوات عديدة .

ـ لماذا ؟

ـ للزمن

ـ دون علمي ؟

ـ هأنا أعلمك .

ـ لكن لو لم يحدث ما حدث لظل الأمر في طي الكتمان .

ـ هذا صحيح .

ـ ألا تخجلين من الكيل بمكيالين ؟

قالت في شهامة آسرة جعلت مني قزما :

ـ أنا آسفة ، لقد أخطأت رغم حسن نيتي ، فما كان ينبغي أن أخفي عنك شيئاً .

بعد أن أحصيت المبلغ الضخم ابتسمت لى فى اغراء سينمائى مستتر وهى تقول :

- أرجو ألا يعلم أحد شيئاً عن هذه الوديعة .

- بالطبع يا سيدتى فهذا شعار أى بنك .

- أنا أتحدث عن زوجى بصفة خاصة .

- طاهر بك ؟؟

وبعد انصرافها سمحت لنفسى أن أنفجر فى الضحك حتى أن زميلى بمكتب الودائع أظهر استياءه الشديد « لسخريتى من العملاء » .

— ٤ —

- غير معقول

- ماذا أفعل حتى تصدقينى ؟

- لا أقصد تكذيبك ولكنى لا أكاد أصدق أن هناك زواجا يخلو من المودة بهذه الكيفية

- يا شيخة ، إن رشيدة هى مثال الزوجة الصادقة التى لا تستطيع أن تكتم عن زوجها سرا

- من حقك أن تسخر منى بالطبع فقد أهداك الزمن الردئ أعظم فرصة .

ـ دعينا من هذا الجدل ولنستثمر القضية فى ظل المودة الزوجية .

ـ كيف ؟

ـ منذ سنوات وأنت تحلمين بإعادة طلاء البيت .

ـ صحيح . إن حوائطه المقبضة تصيبنى بالاكتئاب وتذكرنى بالموت .

ـ سوف نطليه بلون وردى حتى ينعكس على حياتنا بالبهجة والسرور .

ـ قبل أن تسترسل فى الأحلام قل لى من أين لنا بنفقاته

ـ هل تشكين فى مرة ثانية ؟

ـ أنا أسأل ولست أشك .

ـ نقترض هذه المرة من رشيده !

* * *

أعباء الذاكــرة

غادر المقهى متراخياً ، اتجه إلى الشاطيء ، مشى بمحاذاة النهر في خطوات بطيئة . على زبد الموج تطفو شذرات من الذاكرة : رشفة قهوة . ضحكة من القلب . أنفاس سيجارة . نسمة نيلية منعشة . قبلة حب . كسرة خبز طازج . رائحة شواء مثيرة . . وعطر يتسلل بسحره حتى ينفذ إلى خلايا الدم .

لا داعي للأقراص المهدئة فوجه الحياة يبدو باسما باحتوائه على كل تلك المسرات ـ ممارسة واجترارا ـ في لحظة واحدة ، ولا عجب حين تخطر السعادة متهادية على أطياف ذكريات عبرت أفق الزمان بعد أن غابت طويلا في كهوف الماضي .

لم يكن يريد شيئاً . انحرف حول الجزيرة متجها إلى الخلاء . أنس إلى الصمت والخلوة فتنقل من فكرة إلى فكرة . هام في الفراغ ، وتساءل أمن الأفضل أن يتناول المزيد من القهوة ليكون أكثر انتباها للزمن الآني أم يبتلع المهدىء ليصرف انتباهه عن كل الأزمنة . تراءى له أن الصحوة والغيبوبة قد تساويا من قبل في كثير من الأحيان ، وإذ به يتذكر فجأة إنساناً لم يره منذ كان طفلا في السابعة . لم يدر كيف أو لماذا استحضرته الذاكرة من عدم ، ولأن الدنيا تمنع مثلما تمنح ، فمن العبث أن يتعقبها بالدرس والتحليل والتفسير .

تساءل أيضاً أين موقع هذا الكائن الإنساني الغائص في عمق الغيب من تلك البقعة المرتبكة على أرض الكوكب الدوار . ترى أمازال

يسكنها ويتشبث بتلابيبها ، أم أنه قد آثر الفناء فى جوفها المترب لسبب أو لآخر أو ربما بلا سبب ؟ !

إبراهيم محروس .. يتذكره الآن جيداً وكأنما قطع الزمان طريق الأمس البعيد على اللحظة الكائنة ، فالأمر أقوى بكثير من التذكر والاسترجاع . إن إبراهيم أمامه الآن بتضاريس وجهه التفصيلية المميزة .. ببنيانه الجسدى الهائل مقارناً بأنداده .. ببراعته فى كرة القدم والجرى والسباحة . رفيق الطفولة ولا شيء أكثر من ذلك . لاحدث . لا مفارقة . لا واقعة بعينها تستدعى حضوره بهذه القوة المكثفة إلى بؤرة الذاكرة لدرجة التسلط .. ولكن أين هو الآن ؟ !

استقل عربة خاصة متجها إلى بيت الأسرة القديم . هنا ولد وعاش طفولته وارتعش القلب بأولى نبضات الحب . هنا صدم بضرورة التنافس وأهمية التفوق وحب التميز .. من نفس المئذنة الجميلة ينطلق أذان المغرب . يالها من تراكمات هائلة قاسية على النفس ينبغى إزالتها واستئصال جذورها حتى يستشعر نفس أحاسيس الصبا لدى استماعه للأذان .. خطوات الناس إلى المسجد تختلف كثيرا عن تلك الخطوات البائدة التى لا تتكرر .. لعلها الطمأنينة قد ضاعت أو لعله ذلك الشعور الغائب بالنبل والكرامة وجميل الرضا حين ينعكس على وجوه الناس القدامى ذات السماحة الآسرة .

ـ كيف حالك ياعم حسين ؟

ـ نحمده ونشكر فضله ولا نسأله إلا حسن الختام .

- متعك الله بالصحة .. هل تذكر آل محروس ؟

- يوووه .. لقد رحلوا مثلما رحل غيرهم من زمان .

كان عم حسين النجار قد فقد بصره بعد تسعين عاماً من التجوال فى أزقتنا الشعبية يصلح الكراسى ويصنع الموائد والأسرة وعشش الفراخ . فى قبوه العتيد لم يزل ، والتسليم العزيز قابع على خطوط وجهه المتشابكة فى قدم عظيم .. الجديد فقط هو تلك النظرة الشاردة المتعبة المطلة من عينيه الجامدتين بفعل الظلام الدائم الذى حل بهما .

آه يابيتنا القديم . يا أياما رحلت ويا عمرا تبدد . أين أنت ياإبراهيم ولماذا أبحث عنك وماذا أفعل بك إن وجدتك ؟! ربما لا تعرفنى. ربما أصابك الغنى أو الفقر بضعف فى الذاكرة . وربما التقينا بعد كل هذا العناء بلا حماس فلم يجد أحدنا ما يقوله للآخر ، ويسود الصمت ويسيطر السكون .

فى فناء هذا البيت العتيق لعبنا صبيان وبنات . كانت تظلل أحلامنا شجرة جميز ضخمة لم يعد لها أثر . معاول الهدم تزحف على الحى بأكمله متجهة إلى زقاقنا ثم إلى بيتنا . الزمان الجديد لا يهنأ ببقاء القديم إلى جواره . بعد أشهر قليلة سترتفع عمارات شاهقة لتحل محل البيوت الوديعة الواطئة .. وتموت طرقات عم حسين بشاكوشه الأزلى على رؤوس المسامير .. وتذهب الأيام الحنون الهانئة إلى غير رجعة .

قال عم حسين إن آل محروس قد انتقلوا منذ الحرب إلى الإسكندرية ولم يعد أحد من الأسرة يتردد على القاهرة إلا لمصلحة عابرة .

في القطار كان عازما على مواصلة البحث بجدية من ينجز عملا مثمراً ، ولحسن الحظ أن له العديد من الأصدقاء بهذه المدينة الفاتنة . سنوات الشباب والفتوة هي الاسكندرية . . أيام عشق المعرفة والجمال كانت بين أروقة جامعتها ومنتديات آدابها وفنونها الجميلة . . أما نسماتها البحرأوسطية فقد كانت تنزل على القلب برداً وسلاماً .

ما أن خطا خطواته الأولى أمام باب المقهى حتى بدت له كتمثال رخامي أصيل لربة من ربات الحكمة والمعرفة . . جالسة إلى مقعدها فى مواجهة النصبة وأمامها النادل يضع الماركات ، عيناها تترقبان فى هدوء ودربة كل حركة بالمقهى وكل سكون . .

أم زغلول صاحبة المقهى وقد تربعت على مقعد الإدارة بعد وفاة زوجها بليلة واحدة . استقبلته بترحاب بنت البلد وأصرت على أن يكون مجلسه بجوارها مباشرة .

تحدثا عن أيام الجامعة وتقصت أخبار رفاقه الذين كانوا يسهرون بالمقهى ليلة الجمعة من كل أسبوع يستمعون إلى شرائط أم كلثوم ويدخنون ويضحكون ، حتى تطردهم أم زغلول من المقهى فى أمومة نادرة .

أطلعها على عنوان آل محروس الواقع خلف مقهاها مباشرة فبدا أنها تعرف عنهم الكثير . سألته في توجس :

-من منهم تريد ؟

-إبراهيم محروس .

-لماذا ؟

-ليس هناك سبب

-أشك في ذلك . أتسافر من القاهرة إلى الإسكندرية بلا سبب ؟!

-هذا ما حدث .. مجرد أنني تذكرته فجأة

قالت بعد صمت موح وتأمل عميق :

-لم يعد في هذه الدنيا شيء يثير دهشتي !

حكت له عن صراع الأخوة بعد موت الأب . لم تكن قيمة الميراث الهزيلة لتستحق ذلك النزاع الذي أسفرعن قطيعة بين الأخوة وقضايا رفعت في المحاكم ووشايات ودسائس وشراء ذمم وتحديات مثيرة تركت آثارها اللئيمة على الأسرة المفككة حتى الآن .

-ولكن أين إبراهيم ؟

ما إن انتهى من سؤاله حتى تبادر إلى ذهنه مشهد قديم جاءت به تداعيات الذاكرة من مكان وزمان مجهولين ، مثلما تجيء بالعديد من

الأسرار المدفونة فى قاع النسيان فجأة وبدون أدنى تمهيد .. « مجموعة من الشباب يجلسون فى صحن مسجد . يستمعون فى وقار الكبار إلى درس يلقيه شاب ضخم حليق الذقن لا تختلف ابتسامته فى شيء عن ابتسامة طفل غارق فى براءته » .. ما معنى أن تستدعى الذاكرة فى هذا الظرف مشهداً كذلك المشهد ؟ أيكون ذلك الشباب هو إبراهيم محروس؟ .. ولماذا يكون هو لا غيره ؟ !

ـ عاد من الحرب مصاباً وقد حقق بطولات مذهلة .

ـ وماذا فعل بعد ذلك ؟

ـ يقول البعض إنه آتجه إلى الكتابة الأدبية .

ـ هل أنت واثقة من ذلك ؟ .. إننى لم أسمع إسمه يتردد فى هذا المجال .

ـ ويقول أحد إخواته إنه تفرغ للعبادة فى المساجد .

ـ ولكن أين يعيش الآن ؟

ـ فى القاهرة هربا من اخوته وميراثهم المشئوم .

أعطته عنوان أخيه الذى تعرفه ، لعله يدله على ضالته .

فى قطار العودة لم يشعر بتعب أو ندم أو قلق ، وكأنه مسخر بقوة خارقة للسير فى طريق البحث عن إبراهيم محروس بلا سبب سوى أن ذاكرته قد ابتعثته فجأة !

فى القطار عاوده مشهد ذلك الشاب ذى الوجه المشرق بالنور والذى كان يحاضر الشباب فى صحن المسجد . اعتصر ذهنه وأنهك ذاكرته حتى توصل إلى مكان ذلك المسجد وقرر أن يذهب من فوره إليه .كان واثقاً أنه سيعثر هناك على الشيخ إبراهيم محروس ، وغالباً ما سيجده متكئاً على عصا وقد هزل بنيانه الجسمانى الضخم فتحول بفعل الزمن إلى جلد على عظم .

فى الطريق إلى المسجد يمشى يتنازعه خاطران . أولهما أن معجزة العثور على إبراهيم محروس - بعد كل هذا العمر - فى ذلك المسجد لمجرد ورود الفكرة على باله قد تصيبه بذهول أبدى لا إفاقة من بعده . وثانيهما ماذا سيفعل معه وماذا يريد منه وماذا سيقول له لو تحققت المعجزة ؟ !

عندما اقترب من الشارع المؤدى إلى المسجد صدمه شاب يجرى بدراجة مسرعة ، ورغم أنه وقع على الأرض إلا أنه لم يعبأ بما حدث على الإطلاق ، وإنما تمنى فى قرارة نفسه ألا يجد إبراهيم محروس ، وألا يراه إلى الأبد .

انحرف عن الشارع متجهاً إلى الشاطىء . مشى بمحاذاة النهر فى خطوات بطيئة . كانت صفحته رائعة حين ساح عليها ببصره المكدود وقد انصرف ذهنه عن كل ما كان يشغله منذ لحظات .

اتجه إلى المقهى . ما إن جلس حتى أهدته الذاكرة قبلة عمرها أكثر من عشرين عاما . أمامه عبرت امرأة فاح عطرها فى الطريق . تذكر أمه واستبد به حنين إلى المجهول . ارتشف القهوة بانتشاء غامر وترحم على كل أموات ذاكرته ووعيه وقال مرة ثانية انه من العبث تعقب الدنيا بالدرس والتفسير والتبرير ، وإنه لمن الخير نسيانها - كالذاكرة - لتفعل بناء ما نشاء حينا ، وما تشاء فى معظم الأحيان .

* * *

ذبذبات الحكمة المبكرة

يوم بلغت الخامسة والعشرين من عمرى جلست فى خلوة متأملاً ماذا أريد من هذه الدنيا . وجدت نفسى أريد الحب والمال والشهرة والزواج السعيد والصداقات العديدة والثقافة الرفيعة والتجوال فى بلاد الله ، وأشياء أخرى كثيرة قد أخجل من ذكرها لشدة نهمى إلى الحياة وقوة تعلقى بها والتشبث بمباهجها وملذاتها .

ولما انتابتنى الحيرة طرحت أحلامى على أبى عله ينتقى لى أولويات الاختيار بحكم خبرته العريضة بالحياة . ابتسم فى حنان وقال لى إن من يريد من هذه الدنيا كل شىء فإنه لن يحصل على شىء ، كما أن من يكرس حياته بأكملها لتحقيق هدف واحد منها فإنه سوف يجد نفسه أمام أحد احتمالين : الأول أن يحقق هذا الهدف فى مرحلة من عمره ثم يشعر بعد ذلك بضياع رهيب حين لا يجد ما يفعله بحياته بعد ذلك ، والثانى أن يعجز عن تحقيق هذا الهدف ـ أيا كانت الأسباب ـ فيعيش ملوما محسورا نادما على ما بذر من عمره دون حصاد .

هكذا تركنى أبى حائراً من جراء حكمته إذ وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وتركنى أفكر وأختار وأقرر كيفما شئت ، ومن المؤكد أنه لم يفعل غير الصواب .

بعد تفكير عميق وجدت أن أقرب الرغبات إلى قلبى وعقلى هى الشهرة الأدبية ، وقلت أنها قد تكون أولى الحلقات التى سوف يتبعها

ويترتب عليها بالضرورة تحقيق بقية رغباتي الأخرى أو معظمها على الأقل .

والحقيقة أنني رغم حبي الشديد للأدب ورغبتي الجارفة في احترافه ، إلا أنني أخشى السقوط في هوته الرهيبة فأكرر تجربة أبي - الكاتب المعروف - رغم كل المحاذير .

لقد أطلعته على العديد من كتاباتي فلاحظت عليه انبهار شديداً ، وإن امتزج بشيء من الخوف والألم حين قال لي يوما :

- ستكون كاتباً عظيما لو أخلصت للأدب . ولكن هل أنت مستعد لدفع الثمن الذي دفعته أنا ؟

كنت أتابع سيرته الأدبية من خلال قراءاتي لكتبه ومنشوراته في الجرائد والمجلات الدورية ، ومن خلال حكاياته لي عما يجري في سوق الأدب والثقافة بوطننا العربي . ولشدة دهشتي واستنكاري لما أسمع وأرى وأقرأ ، أزداد خوفاً من اقتحام هذا العالم ، فأتراجع عن نشر عملي الأدبي الأول ، تاركاً خط الرجعة قائما حتى لا أجد نفسي قد تورطت يوما إلى الحد الذي يستحيل عنده التراجع إلى خيار آخر .

ضحى أبي بالعديد من مغريات المال والمنصب والاستقرار العائلي في سبيل احتراف الأدب ، راضيا بحياة متواضعة انعكست أحوالها على أسرته . وفي لحظات ضعفه يسري إلى بألمه . وندمه لأنه لم يستطع أن يوفر لأبنائه حياة أكثر رفاهية كان يتمناها لهم ، وكان

قادراً بإمكانياته وكفاءاته على تحقيقها بالفعل .. فهل أنا مستعد - كما سألنى - لدفع الثمن نفسه ؟

تذكرت صديق عمره الأديب الذى أصبح يجوب الطرقات حافيا وقد أمسك بيده فرع شجرة ، وراح يحدث الفراغ من حوله وقد انفجر فى الضحك حينا والصياح حينا آخر ، مرددا أسماء بعض الكتاب الكبار .. وكم اعتصرنى الألم حين ذهبت بصحبة أبى لزيارته فى مستشفى الأمراض العقلية .. وأيا كانت الأسباب والتشخيصات فالنتيجة واحدة : الشعور بالاضطهاد . بالعظمة . بالقهر . بالذنب . بالظلم ... الصدمة العنيفة إثر مواجهة موقف لا إنسانى لم يتصور مواجهته . رقة القلب الشديدة ورهافة الحس وحب الخير والجمال فى مواجهة القبح والكذب والقسوة .. كلها أسباب سوف أتعرض لها بلا جدال لو شئت لنفسى اختيار هذا الطريق .

وتذكرت ذلك الشاعر الذى ترأس تحرير إحدى المجلات ، والذى حين تلقى قصيدة من أحد شعراء جيله لينشرها له - ربما كان فى حاجة ما سة إلى مكافأتها المحدودة - فإنه نشرها له فى بريد الهواة من القراء مع كلمة تشجيع أبوية . لكن الضحية لم يكن سهلا ، إذ بادر بإرسال قصيدة ركيكة مفككة إلى رئيس التحرير نفسه على ورق ملون معطر باسم أنثوى ناعم وخط أكثر نعومة ، حين نشرها رئيس التحرير على الفور فى الصفحات الأولى للمجلة منوها ببراعة الشاعرة الجديدة .. وفى مؤتمر أدبى كبير ألقى الضحية بقنبلته أمام الجميع

وكاد رئيس التحرير أن يغرق في عرقه ويبول على نفسه من شدة الحرج .

وكأن ذاكرتي قد انحصرت في استرجاع آفات حياتنا الأدبية فجأة ، فراحت تبتعث من أعماقها فيضا من المخزيات .. الكاتب الذي هدد أبي بالقتل حين كتب عنه مقالا نقديا كشف عن جهله بقواعد اللغة العربية أكثر من جهله بفن القص . الروائي الذي يسرق أفكاره من كتب التراث العربي القديم ويمزجها بمسروقات أخرى من التراث الغربي . الكاتب الذي ينتحل لقب الدكتور الجامعي حتى ينتهي به المطاف إلى السجن . رئيس المؤسسة الثقافية الكبرى الذي يحتجز العديد من الأعمال الرائعة ولا يصرح إلا بنشر كتب من يتبادلون معه المصالح الخاصة أو يقدمون له خدمات شخصية مباشرة معظمها غير مشروعة . الأديب الذي تخصص في تمجيد بعض الحكام حينا والانقلاب عليهم حينا آخر حسب مقتضيات الحال . الكاتبة التي تدعي أن أعمالها تطبع عشرات المرات وتترجم إلى لغات العالم وهي واثقة أنها تكذب ولكنها لا تعرف السبب ، الأخرى التي تتقاتل دور النشر على إصدار كتبها لما تملكه من مكانة اجتماعية وسياسية ، فضلاً عن جمالها المبهر ونظراتها الواعدة لكل من بيده الأمر .. لن أنسى تلك الندوة التي التقت فيها بأبي وسط عاصفة من

المديح والإطراء علي أعمالها المتواضعة حين قال لها هامسها بهدوء شديد :

ـ المهم رأيك أنت فى نفسك .هل تعتقدين حقا أنك كاتبة ؟

وسألت نفسى من جديد

ـ هل أنت مستعد لدفع الثمن ؟

تخيلت خطيبتى ـ وهى تتسم بخبث شديد ـ تقول لى

ـ ولماذا لا تجرب من بعيد ؟

ـ كيف ؟

ـ ابدأ باسم تنكرى وانتظر ثم فكر وخذ قرارك .

وهذا ما كان بالفعل . اشتركت فى مسابقة أدبية كبرى باسم تنكري فوقعت الكارثة ، إذ فزت بالجائزة الأولي وأعلن اسمي الوهمي في كل مكان ، لكني لم أتمكن بهذا الاسم من الحصول علي مكافآتها المالية الضخمة ، كما شعرت بألم قاتل لأنني لم أكتب اسمي الحقيقي الجدير بهذه الشهرة المدوية . ورغم أني انتظرت وفكرت إلا أنني لم أفد من هذه التجربة شيئاً . قال لي أبي :

ـ ها قد بدأت رحلتك بتضحيتين : المال والشهرة ، فهل تنوي إكمال ما بدأت ؟

فقالت أمي بلهجة مرحة وهي تشير إلي أبي .

ـ أمامنا تجربة حية فلماذا لا نتعظ بها ؟

ولما كنت من فئة الرجال الذين يعتبرون المرأة أكثر واقعية من الرجل وأقل منه رومانسية ، فإني طرحت القضية علي خطيبتي في سؤال مباشر .

ـ هل تقبلين أن يحترف زوجك الأدب ويرتزق منه ؟

أجابت في ثقة

ـ لا أقبل بالطبع

ـ لماذا ؟

ـ لأن شعوبنا أمية في الأغلب الأعم ، ولأن معظم المتعلمين لا يقرءون ، فمن سيشتري بضاعتك ؟

صدمت لقسوة منطقها المعقول فقلت لها مستفزاً .

ـ وإن خيرتك بين القبول وفسخ الخطوبة ؟

فأجابت بنفس الثقة .

ـ أقدم حلا وسطا أفضله علي أن تدركك حرفة الأدب .

ـ ما هو ؟

ـ أن تمتهن عملا أساسيا وتجعل من الأدب هواية فقط .

في البداية أعجبتني الفكرة إذ سبق أن راودتني مراراً ، ولكني تغاضيت عنها لأنها لن تسفر عن مهني محترف قد يصل إلي درجة

وزير، ولا عن أديب بارع قد يحصل يوماً علي جائزة نوبل . لم أصل إلي قرار، وكنت غارقاً في حيرتي والجميع يغنون محتفلين بعيد ميلادي ويطفئون شموع عمري ويصفقون . كان أبي يرقبني في حنان وكأنه يعيش ما يعتمل بصدري بكل تفاصيله . اقترب مني وقال محذراً .

ـ لقد فاتني أن أنبهك إلي جانب آخر .

ـ ما هو

ـ حرية الفنان في قلقه ، والزواج عدو الفن ، والأسرة طمأنينة واستقرار .

أدركت أن أبي يزيد عن عمد من تعقيد المسألة ، وكأنه ينهاني عن احتراف الأدب ولكن بأسلوب فني غير مباشر . قلت له في عصبية مكتومة :

ـ لماذا لا تقلها صريحة فتريحني وتريح نفسك ؟

أجاب بكل ثقله الفكري .

ـ لأني لا أستطيع .

تري كيف يكون موقفه لو كان اختياري هو المال أو الجاه أو المنصب الرفيع أو الدرجة العلمية العالية ؟ سوف تبتعث الذاكرة قصصا مماثلة في عالم رجال الأعمال وأخري في مجال التنافس والاقتتال السياسي والعلمي والمهني والاجتماعي في صوره كافة .

وسوف أقف مكهربا علي حافة الجرف فلا أعرف من أين أبدأ رحلتي أو كيف ، ولن يستطيع أبي - بنفس الكيفية - أن يتنبأ لي بالنجاح في اتجاه دون سواه وسوف أعود لمواجهة تذبذبي وترددي وحيرتي فألجأ إلي محاولات تجريبية هنا وهناك دون أن ألقي بقلبي في تجربة حقيقية تصهره أو تذيبه أو تفنيه . إن تكويننا إنسانيا بهذه الطباع المتوترة التي لا تسفر إلا عن تأجيل اتخاذ القرارات ، لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا في عالم الخيال والفن والأدب ، هذا ما أدركه تماماً ، فلم التخاذل والتردد ؟؟

عاودت الاختلاء بنفسي عدة مرات متأملا حكمة أبي الماثلة في قوله « لا أستطيع » . لكنني - رغم صغر سني وقلة حكمتي - توصلت إلي فكرة شفافة كاملة التبلور تقول إن من الحمق والجهل والعبث أن يعتقد مخلوق أنه قادر علي حسم مصيره بقرار .

* * *

قانـــون الحب

هـــو :

ياصغيرتي .. لا مبرر لخوفك وحيرتك وارتباكك . لا معني لهذا الشعور المكثف بالذنب يطغي علي كيانك ، المسألة ياحلوتي أنك حديثة عهد بالحب رغم تجاوزك سن النبوة ، وأنا أريد أن أعلمك أن للحب قانونه الخاص الذي لا شأن له بسائر القوانين ، فهو نفحة إلهية من النور تشع بطاقتها علي الوجود كله لتمنحه جوهر الحياة ، وتبعث فيه الفرحة والنشوة والحرية ، وتسكب عليه من عطرها القدسي ما يجعل القلوب تتوهج بألق السعادة .. اطرحي من خلفك كل ما عرفت من قوانين وافتحي صدرك لقانون الحياة .

هي :

حبيبي أنت مجنون ، جسمك مكهرب بطاقة زائدة . عقلك يشع أفكارا غير عادية . قلبك قلب عصفور لكنه مشحون بحب الكون كله . لو سلمتك عقلي لانقلبت حياتي رأساً علي عقب . إني لا أستطيع الصمود أمام حبك لأنه يجمح بلا قانون .. ولو كان له قانونه الخاص كما تدعي لأمكن لعقلي استيعابه واحتماله . إنك تجرني معك إلي هاوية مجهولة لا يعلم مداها إلا الله .. لهذا يدق لي عقلي جرس الإنذار كلما كاد يجرفني تيارك العاتي ، ويجعلني علي وشك الاستسلام للفيضان .

هـــو :

أخشي أن أكون قد غامرت بعمري من أجل لا شيء فقانون الحب يجرم أطر العقل البادرة وحوافه المدببة وحدوده الشائكة . إنني

لست أفرض عليك هذا البركان المتفجر حباً ، فكفاني أن يهدر به صدري مدي الحياة ، لكني مازلت مصرا علي أن للحب قانونه الخاص حتي لو لم يقبله عقلك العنيد الذي سوف يضيع عليك أجمل ما في عمرك كله .. الذي مضى ، والذي هو آت .

هي :

أسألك باسم هذا الحب أن تصدق إني لم أحب سواك أبداً ، ولكني أخشي من عواطفك الثائرة علي معني شفيف مقدس أنشده في حبنا . إنك تحطم جدران الزمن بكلمة ، وتدمر التقاليد بنظرة ، وتنسف الأعراف بلمسة من يدك . إنى أحبك فوق ما تتصور ، لكني لا أرغب في أن أذوب فيك .

هو :

أنا لست مجنوناً ، بل الجنون هو ألا تتعلمي كيف تحبينني مثلما أحبك ، وألا تعرفي أن الحب يجعلك أكثرقرباً من الله . العقل هو أن تتركي روحك لتسكن في سراديب قلبي . الجنون هو ألا تعرفي كيف تحتضنين مشاعري علي صدرك وبين ذراعيك وفي أحضان قلبك وبعمق عينيك اللتين لا أري الحياة إلا من خلال بريقهما الأخاذ وحنانهما الآسر .. حبيبتي .. الحب هو الذوبان ، ولا مفر أمامك من الاختيار .

هي :

خذني لجنونك .. خذني !

* * *

ما بصــدري

بكل ما أحمل من أثقال السنين جلست . اختارتنى أبعد مائدة في أقصى ركن لأجلس إليها فاستجبت . سارعت إلى علبة سجائرى .وضعت سيجارة مصرية فى الفم العاجى الفرعونى الأنيق ، واستبقيته فترة بين أسنانى بينما ألقى بنظرة فاحصة قلقة على رواد المكان ثم اشعلت السيجارة الأولى .

خلف الزجاج كان الربيع يذيب الشتاء ، فيتسلل اللون الأخضر البهيج فى فضاء الغابة الواسعة من بين طبقات الثلج التى تراكمت عبر شتاء قارس على فروع الأشجار وأغصانها ..أما الشمس فقد طالت إقامتها الذهبية حتى الواحدة صباحاً ، تبث سحرها الغامض فى سماء السويد وتبعث موسيقاها الدافئة فى حنان جميل بدقات القلوب .

أثار ظهورى المفاجئ بهذا المكان النائى فى أقصى شمال غربى العالم انتباه الحاضرين فالجميع فى طور الشباب يتنفسون المرح ويرقصون الأمل ويغنون الحياة .

تتساءل عيونهم في دهشة ممزوجة بالفضول ، وتطل ابتساماتهم في توجس يميل إلي الترحيب .. من أنت أيها الرجل الأسمر الأنيق ذو الحلة الكلاسيكية وربطة العنق الشابة والابتسامة الخجلي ، وماذا يعني شعرك الفضي اللامع ؟ ..

ما الذي جاء بك من عالمك البعيد إلينا ، ولماذا ، وهل تعرف كيف ستمضي الوقت بيننا أو كيف سيكون مصيرك لو كنت تروم البقاء ؟ !

لو دخلت إحداهن صدري لما ترددت أن تمضي بقية عمرها في جناتي ووادياني وقمري وأنهاري وعصافيري وكلماتي وألحاني وألواني وغنائي .. وها هي تجيء كما الحلم .. حورية تسعي إلي مائدتي تطلبني علي استحياء للرقص .. تحف بها هالة من نور الخالق الأعظم .. أذوب في سحر الجمال فأرقص وأتفاني وأفني في ملكوت سرمدي لا يفرق بين التقدم والتخلف ، ولا بين الشباب والكهولة .. ولا بين الشمال والجنوب .

* * *

الموت علي الجسر الذهبي

كان يحيا علي مسلمات راسخة ، منها أن الحب هو خلاص الإنسان علي الأرض ، وأن الإيمان هو خلاصه في السماء ، وأن الفن هو الجسر الذي يصل ما بين الشاطئين . لهذا عاش فرحة عمره حين التقاها ، إذ كانت ذلك الجسر الذهبي الذي نقله بمسلماته إلي بر اليقين، فعاش حياة رائعة يحسده عليها الإنس والجن ، دامت أكثر من سنوات أربع ، هائماً في همسات الحب هنا ، سابحاً في نفحات القرب هناك ، سعيداً في السماوات والأرض .. حمل إليها تاريخه الطويل بما حفل به من زهر وشوك ووعي وغفلة ، فكان ذلك التاريخ جواز مروره إلي جزيرتها الشامخة النائية والتي ظلت من الأزل نائمة في صمتها الغامض قبل أن يسوقه إليها قدره .

* * *

علي مشارف الجزيرة استوقفني حارسان تبارك الخالق الفنان في إبداعهما . في البداية خلتهما عصفورتين ورديتين تترنمان بأناشيد الخلد العلوية .. كانت رائحتهما تفوح بمسك الجنة ، ولما اقتربت منهما ولا مستهما حسبتهما حمرتين من مرمر عنيد تتقدان بنار العشق ونور الهوي ووهج الجنون ، فطار صوابي من الفرحة وقلت يا الله !! حبيبتي جزيرة بكر تنام وادعة في قلب الجمال . هي من أودعتها منذ مولدي كل أسراري وخبراتي وأدق خلجاتي وأفرغت في قلبها أفراحي وأشجاني الفائته والآتية من قبل أن تراها عيناي .

أمام محرابها أقف خاشعاً .. تتربع علي عرشها لؤلؤتان عسليتان غارقتان في بحر من نور .. سكانها يابديع السماوات والأرض لا يتخاطبون بالكلمات وإنما يتهامسون بأحرف الموسيقي ، وأنا من يعشق الطرب ويفني في الرفص والهمسات . أتوه يامولاي في أحراش جزيرتك الساحرة التي اخضرت بمقدمي .. تسكرني فواكهها التي لا تعرف الفصول ، وتقر عيناي بمهرجان الألوان الفرحة الذي تقيمه زهورها لتشع في الكون البهجة والحبور .. وترقص أعطافي لانسياب جداول الماء والعسل والحب بين جنباتها ، أما النشوة الحقة فمن أين لها أن تحلق بي في السماوات العلا بغير نشيد الإنشاد تغرد به الطيور وهي تتقافز في طمأنينة علي فروع الأشجار وأوراق الورد .

تعالي ياحبيبتي من هموم العالم وغروره فأنت التي لم يستكشف أرضها غيري . تعالي كما أنت . أحزينة أنا أعزيك . أمريضة أنا أشفيك . أمحتاجة أنا أعولك . أخائفة أنا أطمئنك . أباكية أمسح دموعك .

أنت المخلوقة الوحيدة التي بيدها أن تطلق الطيور لتغرد علي رؤوس الأشجار فتفجر في قلبي يتابيع الفن والجمال ، وتمنحني أنفاس الحياة . لقد أفنيت عمري أبحث عنك في محاجيء الصخر في ستر المعاقل في شقوق الصخور وفي مخابيء طيات الجبال . هل أنت مهمومة « ألق علي الرب همك فأنا أعولك » .. هل أنت متعبة ؟ .. « تعالي إلي وأنا أريحك » .. أعليك مشقات ؟ .. « صلي .. أسمعيني صوتك » .

* * *

قال له أحد الحارسين بحروف من نغم جميل :

-إن دخول الجزيرة مرهون بشروط .

-ما هي ؟

-أولها المحبة .

-فما بالك بصب يفدي بروحه المحبوب ولا يبالي ؟!

وقال له الثاني :

-وثانيها الفناء في المحبوب

-أنا الحبيب والمحبوب والسر الذي يجمعنا أرواح ثلاثة قد حلت في جسد واحد .

سمحالي بالاقتراب فلما دنوت أكثر أصابني عبيرهما الفواح بغيبوبة مقدسة ، رحت على أثرها متنقلا بين الأرض والسماء وقد خلعت عني أوصافي وسكنت في ملكوت النشوة ولذة الوصل .. ولما أفقت ابتسمالي وقالا في وداعة آسرة أنهما يعلمان أنني الجدير وحدي من دون العالمين بدخول الجزيرة لأني محب عظيم بكل ما لا يخطر علي قلب بشر من حقائق ودقائق ورقائق . ثم قاداني إلي نهر الحياة وسألاني في مودة أن أحقق الشرط الثالث ، قلت فما هو ، قيل أن تشرب من النهر فإما أن تصمد وإما أسكرتك حلاوته فطاش عقلك ، ولك الخيار بين البوح والكتمان .

قلت إني غريق النهر من قبل أن تمسسه يداي وتلمحه عيناي ،

فمـا جـدوي الحـيـاة علي ضـفـتيـه دون الغـوص في لجـة نعـيـمـه حـتي الفناء .

ابتـهـج الحـارسـان بإصـراري فـتـركـاني أقـذف بأنيني وحنيني وأغوص بروحي في قلب النهر ، فحلولي في قاعه منيتي ومرادي لتحل معي حيرتي وأسراري وأفراحي وأسقامي .

ولدرايتـهـمـا بأسـرار العـشق الأزليـة أدركاً أني تجـاوزت الحـد في المحـبـة فـخـشـيـا علي من الغرق وأخرجاني من لجتـه قبل أن أتلاشي ، وأمـراني بالتـمـهل والانتظار وأضـفـيـا علي من حنانـهـمـا المـلائكي مـا يسعدني عمرا فوق عمري .

أجلسـاني بينهـمـا يجـففـاني لبـرهة لا تقـاس بزمن الدنيـا ، فإذا بدفئهما القدسي يغيبني من جديد .. ولكم تمنيت أن أظل في غيبوبتي حـتي يوم أبعث لئـلا ألقي مـصـيـري المـأسـوي الذي تنبـأت به أسـاطيـر الإغريق وكتب الأولين لكل من تسـول له نفسه تحدي الزمن بإيقافه عن السريان أو بمحاولة إعادته إلي الوراء .

كـان كـمـــن عـثـر علي كنز لا مـثـيـل لـه ولا نظيـر في الدنيـا ، فتحير في كيفية الحفاظ عليه والأنس به والامتزاج معه . بذل من فكره وروحـــه ودموعـه ، وحبـس دمـه في شرايينه عـــن قلبـه الرهـيف خـشيـة أن ينهـار الجسـر أو أن تزل قـدمـه من عليـه فـيـسـقـط إلي هاوية المـوت المحتوم .

ولشدة خوفه وقلقه ورجائه اشتدت لهفته علي محبوبته واشتعل حنينه واشتياقه إلي دوام القرب منها ورؤياها وسماع صوتها وارتشاف الشهد من كرزتيها .. ولم تكن رأسه الملتهبة بالعشق والوجد لتهدأ أو تستكين إلا علي صدرها الحاني ، وأناملها الرقيقة تتحسس شعره برفق أم رؤوم وتربت علي ظهره الذي ينوء بما حمل من أثقال الوعي وأعباء السنين .

أيتها المريدة الغافلة عن فضل معلمك الذي طال وقوفه ببابك ودام اعتكافه برحابك وزرع في حديقة قلبك المسحورة بذور العشق الجميل ، ففتح لك مغاليق أسرار حياة كانت خافية عنك . تتعطشين للخروج من قمقمك الرهيب وحين أهبك الحرية وأنتشلك من كآبة الوحدة وكابوسها المظلم إلي نور الأنس والسرور فأنت تكابرين وتضنين وتترددين .. ألا ما أشقي عسل الحب حين يسيل هدرا بين شفتيك الثريتين اللتين طال هجرهما .. دعيني أرويك من نبع الحياة في جنتك المشتهاة .. إن عشقك ياحبيبتي أسكنك في دمي بروحك وعقلك ودينك وجسدك وأحلامك ونظرات عينيك ورائحة عرقك وتفاصيل المنمنمات الدقيقة تحت جفنيك وعلي بشرة وجهك الجميل .. أما آن لي أن أحتويك في صدري . أضمك بكل العنف والرقة وأصب بكل الوجد في أذنيك همسات الحب والعشق

والحنان. لقد كانت جزيرتك خاوية علي عروشها قبل أن أرويها بدماء قلبي الوله .. إنك ويا أسفي تدمرين بجحيم عقلك ما تبقي لنا من عمر قليل يدعونا إلي استقطار ما تبقي لنا فيه من نعم ، واستحلاب رحيقها الأخير قبل فوت الأوان .

لقد عشت في صدري عمرا بأكمله أراك في صحوي ومنامي بعين الراهب المتبتل ، أتوسل إليك تارة بحق الساعات التي جمعتنا في الترحال والسفر ، وتارة بحق لحظات الوداع بتلويح الأيدي علي محطات القطار ، وتارة بحق صوتك الدافيء الودود حين يأتيني من قارة تفصل بيني وبينها محيطات .. كم توسلت إليك بعينين دامعتين بالأمل والزهور والفرحة والترقب وقلق الحياة الجميل .. أكل هذا لم يصل إلي فهمك ؟ ! انك تعشقين قمقمك ، فكبرياؤك أقوي من حبك ونرجستيك أقسي من قلبك ، وعقلك عاجز عن استيعاب حبي وتصديقه وكأنه عندك معجزة مستحيلة التحقيق في عالم الأغيار .. ورغم احتياجك الحيوي للمساتي وهمساتي وكلماتي النازفة بالمحبة ، فإنك ظللت تقفين صامتة قليلة الحيلة أمام قلب يذبح وإنسان يموت في بطء بين عينيك .

* * *

بدأ يقينه في الاهتزاز وراحت مسلماته تضطرب أمام عينيه الذابلتين ، ورغم ذلك كانت صورته لا تجتلي إلا في صورتها ، وأنفاسه لا تتردد إلا أملا في التفاتة من عين قلبها توحد بينها وبينه وتحل فيه وتمتزج به .. لكن ملكاته بدأت في التعاكس والتذبذب والتضاد والتناحر ، وكأنهد تنذره بنهاية عهدها بالانسجام والتجانس الذي تتميز به شخصيته .. ومأساة الدنيا تكمن في التغير والزوال .. ولأنه يحفظ هذا الدرس جيداً بل ويخشاه كما الموت ، فإنه كان دائم البحث والترقب لظهور شواهد المأساة المرتقبة وعلاماتها التراجيدية الرهيبة .

حتي جاء ذلك اليوم المشهود حين أدرك ـ وبالشدة مرارته ـ أنها عاجزة بحق عن تصور معني حبه لها ، بل إنه كاد يشك في تصديقها له .. لابد أنه معني يتجاوز قدرتها علي الفهم والتصديق والتصور وكأنها تجزم بعدم استحقاقها للسعادة .

في ذلك اليوم أدرك أن النهاية المرتقبة آتية لا محال . إنه يوم قد حفرت ثوانيه في أخاديد قلبه مقبرة تحمل اسم محبوبته ، حين تثبت من أن الحب عدل والعدل حب ، وأن كل جميل في هذه الدنيا لا يتصف إلا بالعدل .. فالله نفسه اسمه العدل .

ولأنه يقدس تلك الصفة الربانية العليا بكل جوارحه ، فإنه لم يعد يرتضي بل ولم يعد يستطيع أن يرتضي لنفسه أن يكون ظالما لمحبوبته فحاجتها إليه ليست بقدر حاجته إليها .

* * *

وبدأ ينزف ..،

أنت ياسيدتي رزينة متعقلة حتي الموت ، وأنا لا أريد من أحد في هذا الدنيا شيئاً ، وأنت كائنة قدت من عقل ، ولم يعد لدي شيء أعطيه لأحد ، وكل الهوي صعب علي الذي يشكو الحجاب ، وناد يارحمان يارب يامنان اني حزين ، وأدين بدين الحب أني توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني ، وشغلي بها وصلت بالليل أو هجرت فما أبالي أطال الليل أم قصرا ، وكلما ضنت تباريح الجوي فضح الدمع الهوي والأرقا ، وإذا حل ذكركم خاطري فرشت خدودي مكان التراب ..

وراح النزف يزداد ..

لأجل عينيك الجميلتين أعفيك من عبء حبي ، ولأجل قلبك الطيب الغافل عن روعة حبي أريحك من حمل عشقي .. أحررك من جنوني وتقلبي وشططي وهيامي .. أعتقك من أسر أنانيتي ومن تشبثي بروحك كطفل عنيد ، فحبي يفوق طاقتك علي احتمال الحب ، ويعظم علي قدرتك علي العطاء .. حفظك الله ورعاك من كل سوء .. ولابد يوما أن تأتي لحظة ينتهي فيها النزف !

* * *

الفهـــرس

الصفحة

تابع الفهـــرس

الصفحة

المؤلف

E mail: saidsalem 57 @ hotmail. com

saidsalem 62 @ yahoo. Com.

سعيد محمود سالم :

- من مواليد الإسكندرية ١٩٤٣ .

- عضو اتحاد كتاب مصر وعضو اتحاد الكتاب العرب وعضو هيئة الفنون والآداب وعضو أتيليه الفنانين والكتاب بالإسكندرية .

- عضو لجنة النصوص الدرامية بالإدارة المركزية لإذاعة وتليفزيون الإسكندرية .

- حاصل علي ماجستير الهندسة الكيمائية من جامعة الإسكندرية ١٩٦٨ .

- عنوان المنزل : ٥ شارع علي باشا ذو الفقار - شقة ١٠ - مصطفي كامل / الإسكندرية .

- تليفون منزل : ٥٤٦٢٨٦٩ (٠٣)

- محمول ٠١٢/٤٣٩٠٢٥٩

الروايات المنشورة (١٢ رواية) :

- « جلامبو » جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٦
- « بوابة مورو » جماعة أدباء الإسكندرية ١٩٧٧ .
- « عمالقة أكتوبر » هيئة الكتاب ، مصر ١٩٧٩ .
- « آلهة من طين» (طبعة أولي) هيئة الكتاب ، مصر ١٩٨٥ / (طبعة ثانية) دار الجليل ، دمشق ١٩٨٦ .
- « عاليها أسفلها » (طبعة أولي) مطبوعات وزارة الثقافة دمشق / سوريا ١٩٨٥ .
- « الشرخ » دار طلاس ، دمشق / سوريا ١٩٨٨ .
- « الأزمنة » روايات الهلال ١٩٩٢ .
- « عاليها واطيها » (طبعة ثانية) دار المستقبل مصر ١٩٩٢ .
- « الفلوس » دار المستقبل ، مصر ١٩٩٣ .
- « عاليها أسفلها » (طبعة ثالثة) هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥
- « الكيلو ١٠١ الوجه والقناع » دار ومطابع المستقبل ١٩٩٧ وطبعة عن هيئة الكتاب ١٩٩٩ .
- « حالة مستعصية » دار الهلال ٢٠٠٢ .
- « كف مريم » مطبوعات اتحاد الكتاب ٢٠٠١ .
- « الشيء الآخر » دار مطابع المستقبل ومكتبة المعارف ببيروت ٢٠٠٤.

مجموعات قصصية منشورة وتحت النشر (٩ مجموعات قصصية) .

- « قبلة الملكة » مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٨٧ .

- «رجل مختلف » هيئة الكتاب ، مصر ١٩٩٥ .

- « الموظفون » مطبوعات اتحاد الكتاب العرب ١٩٩١ .

- « الجائزة » دار قايتباي للطباعة والنشر ، مصر ١٩٩٤ .

- « الممنوع والمسموح » مختارات فصول ٢٠٠٢ .

- أقاصيص من السويد هيئة الكتاب ٢٠٠٥ .

مجموعات قصصية تحت النشر :

١ رحيق الروح .

٢ - هوي الخمسين .   ٣ - قانون الحب .

القصص القصيرة منشورة بالجرائد والمجلات الآتية :

الأهرام - الأخبار - الجمهورية - المساء - أكتوبر - حواء - مايو - الهلال - الثقافة - الكاتب - إبداع - آخر ساعة - روز اليوسف - القصة - عالم القصة - أمواج - الإسكندرية - الأيام - البعث - تشرين - الموقف الأدبي - الثورة - الأسبوع الأدبي - الكتاب العربي - البيان - الأنباء - العربي - الفيصل - المجلة - الحرس الوطني - الشرق الأوسط - الدستور - الرأي - اليوم السابع - صباح الخير - الناشر - العربي - الكويت .

المسرح :

الجبلاية (مسرحية كوميدية من ٣ فصول) - الدكتور مخالف (مسرحية كوميدية من ٣ فصول) .

نماذج من الدراما الإذاعية :

حجر النار - العائد - سباق الوهم - بوابة مورو - زارع الأمل - رحلة الصعود والهبوط - رجال من بحري - الدكتور مخالف - أحلام الناس الطيبين - عيون الليل - مفتاح السر .. وغيرها ، وهي مسلسلات إذاعية شهرية في ٣٠ حلقة بإذاعتي الإسكندرية والقاهرة ، فضلا عن العديد من السهرات الكوميدية وإعداد برنامج القصة أسبوعيا .

في النقد الأدبي :

مجموعة مقالات نقدية لبعض الكتاب العرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة .

أهم الجوائز :

١ - الجائزة الأولي عن رواية الأزمنة » في مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية ١٩٩٠ .

٢ - جائزة الدولة التشجيعية في القصة لعام ١٩٩٤ عم مجموعة (الموظفون) الصادرة عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحاد العرب بدمشق .

٣ - جائزة اتحاد كتاب مصر في الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية « كف مريم » .

* * *

●● صدر من هذه السلسلة .

١ ـ آلام صغيرة وقصص أخري ـ الفائزون في مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨ .

٢ ـ يوميات عروبة ـ د . هاني الرفاعي .

٣ ـ ما رواه البحراوي ـ عبد الرحمن شلش .

٤ ـ أبناء نادي القصة ـ محمد محمود عبدالرازق .

٥ ـ زوجتي لا تريد أن تتزوجني ـ فتحي سلامة .

٦ ـ الحي الراقي ـ فتحي مصطفي .

٧ ـ الياسمين يتفتح ليلا ـ عزت نجم .

٨ ـ حدائق السماء ـ محمد سليمان .

٩ ـ الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين ـ الفائزون في مسابقة القصة القصيرة .

١٠ ـ دلوني علي السبيل ـ محمد الشريف .

١١ ـ الجدة حميدة ـ حسن الجوخ .

١٢ ـ فستان زفاف قديم ـ علي عيد .

١٣ ـ بحر الزين ـ حسن نور .

١٤ ـ من أوراق العمر ـ محمد كمال محمد .

١٥ ـ إحراج ـ نادية كيلاني .

١٧ - عاد الأسد .. أسداً نبيلا - عبد المنعم السلاب .

١٨ - عراف السيدة الأولي - محمد القصبي .

١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد

٢٠ - السلمانية - صلاح معاطي .

٢١ - الفائزون أول القرن الحادي والعشرين - الفائزون في مسابقة القصة القصيرة .

٢٢ - صبحي الجيار والمحنة المضيئة - مصطفي عبد الوهاب .

٢٣ - الرغبة الوحيدة - صوفي عبد الله .

٢٤ - الغزال في المصيدة - محمود البدري .

٢٥ - خراط البنات - صفوت عبد المجيد .

٢٦ - القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع - حسين عيد .

٢٧ - حوار مع جنيه - عصام الص[illegible]ي .

٢٨ - ليلة موت - عبد الحميد الفداوي .

٢٩ - حبيب حبيبي - درويش الزفتاوي .

٣٠ - لقاء غير متوقع - محمد صفوت .

٣١ - التوأم وقصص أخري - الفائزون في مسابقة نادي القصة القصيرة .

٣٢ - أكثر من عمر - عبد الفتاح مرسي .

٣٣ - من حياة - رستم كيلاني .

٣٤ - فرحة الأجراس - عبد العال الحمامصي .

٣٥ - أنا .. ونورا .. وماعت - رفقي بدوي .

٣٦ - الليلة الثانية بعد الألف - مختارات من القصة النسائية في مصر - إعداد وتقديم يوسف الشاروني .

٣٧ - ثلاثية آدم وحواء - عماد الدين عيسي .

٣٨ - الأحلام تتمشي في الذاكرة - محمد الفارس .

٣٩ - بين الحكي والنقد - نبيل عبد الحميد .

٤٠ - مواسم الشروق - أحمد الشيخ .

٤١ - السقف والناب الأزرق - فؤاد قنديل .

٤٢ - الفائزون في مسابقة القصة القصيرة لعام ٢٠٠٢ .

٤٣ - خمس سنوات رملية - سمير درويش .

٤٤ - القصة والرواية في السبعينيات - د. يسري العزب .

٤٥ - الضوء والظلال - محمد قطب .

٤٦ - عين طفل - د. مرعي مدكور .

٤٧ - فنون روائية - محمود عبد الوهاب .

٤٨ - عطر المشمش - أمين بكير .

٤٩ - أولاد الأفاعي - خليل الجيزاوي .

٥٠ - زوينة - محمد جبريل .

٥١ - التعدد والتباين - أحمد عبد الرازق أبو العلا .

٥٢ - فيل أبيض وحيد - د. محمد حسن عبد الله .
٥٣ - العذاب والصمت - لوسى يعقوب .
٥٤ - عواطف دافئة - وفية خيري .
٥٥ - أحداث منتصف الليل - رأفت سليم .
٥٦ - ظلال وأشخاص - محمد الحديدي .
٥٧ - قراءة في القصة والرواية - د. جمال عبد الناصر .
٥٨ - الصوت والصدي - يوسف جوهر .
٥٩ - أشلاء بؤرة العشاق - أحمد محمد حميدة .
٦٠ - ثلاث روايات - السيد نجم
٦١ - قانون الحب - سعيد سالم

الإصـــدار القـــادم

القصة القصيرة والرواية

إبراهيم سعفان

دارالنيـــــل

للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شـارع عبـده بدران
م. الباشا-المنيل-القاهرة
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع لدارالكتب

٢٠٠٦/٨٤٣٣

الترقيم الدولي
I.S.B.N.: 977-432-003-4